
الدين .. والدجل
(١٥)
الطائفيون ..
والحكماء السبعة
رواية تجتث الطائفية من جذورها
د. نور الدين أبو لحية

هذا الكتاب

هذه الرواية موجهة بالدرجة الأولى لأولئك الإسلاميين ـ حركيين كانوا أو سلفيين ـ الذين تركوا الدعوة للإسلام ـ الذي أردوا احتكاره دون سائر الناس ـ وراحوا يتدنسون بعار الطائفية والحزبية والفرقة.

فصار دورهم الوحيد نشر البغضاء والأحقاد في القلوب، ونشر التفكك والقطيعة في المجتمعات، ونشر الدمار والخراب في الأوطان.

وهي تحاول أن تعيدهم إلى كتاب ربهم، وسنة نبيهم ﷺ، وهدي الأئمة الطاهرين الذين جعلهم الله ممثلين لدينه، وورثة لنبيه.

وقد وضعتها بشكل رمزي بسيط، ليسهل الاستفادة منها على العامة والخاصة.

الدين .. والدجل

(15)

الطائفيون والحكماء السبعة

رواية تجتث الطائفية من جذورها

د. نور الدين أبو لحية

www.aboulahia.com

الطبعة الأولى

1436 – 2016

دار الأنوار للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس المحتويات

المقدمة

هذه الرواية البسيطة كتبتها قبل أن يحصل ما يحصـل الآن من مؤامرة على العالم الإسلامي.. كنت أرى حينها الإسلاميين ـ حركيين كانوا أو سلفيين ـ وهم يتركون الدعوة للإسلام ــ الـذي أردوا احتكـاره دون سـائر النـاس ــ ليتلطخـوا بعـار الطائفيـة والحزبية والفرقة، فيصير دورهم الوحيد نشر البغضـاء والأحقـاد في القلوب، ونشـر التفكـك والقطيعـة في المجتمعـات، ونشـر الدمار والخراب في الأوطان.

وهي تحاول أن تعيـدهم إلى كتـاب ربهم، وسـنة نـبيهم ﷺ، وهدي الأئمة الطاهرين الذين جعلهم اللـه ممثلين لدينـه، وورثـة لنبيه.

وقد وضعتها بشكل رمزي بسيط، ليسـهل الاسـتفادة منهـا على العامة والخاصة.

وقد استلهمتها من خلال الروايـة الـواردة في كتب التـاريخ عن مناظرة ابن عباس للخوارج، ومحاروته لهم، وكيفيـة رجـوع الكثير منهم بعد ذلك.

وتختصر أحداث الروايـة في قيـام حـرب بين طـائفتين من المسـلمين، وقبـل أن تبـدأ يخـرج حكيم من الحكمـاء بين الجيشـين، ويرفـع صـوته قـائلا لهم: يـا إخواننـا.. لا نشـك في غـيرتكم وإخلاصـكم.. ولا نشـك في إيمـانكم بـربكم وتعظيمكم لـه.. ولهـذا نناشـدكم اللـه أن تسـمعونا.. لا نقـول لكم: ارمـوا سلاحكم، فنحن نعلم ما له من قيمة عندكم.. ولكنا نطلب منكم أن تسمعوا كلمة من كل واحـد منـا.. فقـد التجأنـا إلى اللـه في كل تلك السنوات الطويلة أن يعيد لهـذه الأمـة وحـدتها وقوتهـا، فعلم كل واحد منا كلمة من كلمات الوحـدة، وسـرا من أسـرار الاجتماع.. فاسمعوا منا جميعا.. ثم افعلوا بعد ذلك ما بدا لكم.

وبعد أن يقـول هـذا، ويوافـق كلا الجيشـين على الاسـتماع يبدأ كل حكيم في محاورتهم، ومناقشـة الشـبهات الـتي جعلتهم

يحارب بعضهم بعضا..

وقد كان أهم مصادرنا في تلك الحوارات والمناظرات المصادر المقدسة المعصومة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والتي هي محل اتفاق بين الأمة جميعا..

كما أننا ذكرنا فيها عند بيان توبة التائبين الذين ألقوا أسلحتهم بعض الأسباب التي جعلتهم يحملون السلاح، وكيف ينحرفون عن المعاني والقيم القرآنية والنبوية.

وهذه الرواية من سلسلة كتب تهدف إلى الدعوة للوحدة الإسلامية، وإصلاح ذات بين المسلمين.. وهي بذلك جزء من مشروع، وليست المشروع جميعا.. ولذلك فإن ما قد يبدو فيها من القصور يكمل في سائر السلسلة.

البداية

أذكر جيدا أنني كنت حينها متألما غاية الألم بسبب مـا أراه حولي من ضجيج وصخب ولغو يستعمل الـدين مطيـة ليفـرق القلوب والأجساد، وينشـر الفتنـة، ويملأ الأرض خرابا ودمـارا.. كان الكل كالمجانين الذي أعمتهم الأحقاد، فصاروا لا يـرون مـا يحل بهم، وما يخطط لهم، وما يكادون به.

ومما زاد في ألمي علمي بـأن الأمـة الـتي أنتمي إليهـا.. والـتي تمتلئ بالضـعفاء حـتى إنهـا تكـاد تمثلهم.. فيهـا من الصالحين والأولياء والمقربين ما لم تظفر أمة من الأمم بعشـر عشيره.. ولكن العدو مع ذلـك تسـلل إليهـا في كـل مرحلـة من مراحـل تاريخهـا عـبر أهـواء ينشـرها، ثم ينشـر خلفهـا أوتـاد التعصب.. لتنقلب بعد ذلك رماحا نقاتل بها بعضنا بعضا، وننسـى عدونا الذي ينظر إلينا بشماتة متربصا لحظة انطفاء النيران بيننا ليزيد من وهجها بحطب جديد ووقود جديد..

تذكرت الخلافات التي تؤرخ لها كتب الملل والنحل.. والتي لا ترضـى إلا أن تكـون حطبـا ووقـودا يزيـد نـار الخلاف وهجـا واتقادا.. وهي تبشر بفرقـة الأمـة، وتـأبى إلا أن تجعلهـا سـبعين طائفـة، وفي كـل طائفـة سـبعين.. ثم لا ينجـو من هـذا الفتـات المتناثر إلا طائفـة واحـدة منصـورة، ويـرمى غيرهـا في أطبـاق جهنم..

وزاد من ألمي ما تسطره الأخبار كل يـوم عن التفجـيرات التي تقوم بين الحين والحين في مساجد هـذه الطائفـة أو تلـك الطائفـة.. وكـل يـزعم أنـه ممثـل الـدين والنـائب عن رب العـالمين.. ولا يـرى لـه من تمثيـل غـير الإبـادة.. إبـادة إخوانـه ليغرس على جثثهم بذور الدين الذي لا يرى دينا غيره.

لقد عرفت صدق نبوءته ﷺ عنـدما قـال:(إن اللـه زَوَى لي الأرض حتى رأيت مشارقها ومغاربها، وإن مُلْك أمتي سـيبلغ مـا زُوي لي منهـا، وإني أعطيت الكـنزين الأبيض والأحمـر، وإني

سألت ربي، عَزَّ وجل، ألا يهلك أمتي بسنَة بعامة وألا يسلط عليهم عدوّا فيهلكهم بعامة، وألا يلبسهم شيعا، وألا يذيق بعضهم بأس بعض. فقال: يا محمد، إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد. وإني قد أعطيتك لأمتك ألا أهلكتهم بسنة بعامة، وألا أسلط عليهم عدوا ممن سواهم فيهلكهم بعامة، حتى يكون بعضهم يهلك بعضا، وبعضهم يقتل بعضا، وبعضهم يسبي بعضا)[1]

دب إلى نفسي غول الألم من جديد، وأنا أتذكر هذا الحديث، وأقول لنفسي: لا مناص لنا من هذا.. فهذا قدر مقدور كتب في جبين هذه الأمة.. وسيبقى بأسها بينها شئنا أم أبينا..

ما وصل بي الخاطر إلى هذا المحل حتى شعرت بيد تربت على كتفي، ولست أدري هل كنت حينها نائما أم مستيقظا أم بين النوم واليقظة..

التفت فإذا بي أرى رجلا ممتلئا أنوارا، يقول لي، وهو يبتسم: أنت تبحث عن سر الوحدة.. فهلم لتنهل من معارفها ما يملؤك بالقوة والأمل..

قلت: أي قوة؟.. وأي أمل؟.. وأي وحدة؟.. لقد سطرت آلام الفرقة في جسدنا.. ولا مفر لنا منها، ولا مخرج.

قال: ألم تتعلم من القرآن الصامت والناطق مزاحمة الأقدار بالأقدار؟

قلت: بلى.. ولكن تلك أجسادنا التي لم تتوزع شتاتا كما توزعت طوائف الأمة.

قال: ولكن الأمة جسد واحد كذلك.. ألم تسمع قوله ﷺ: (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى)[2]

قلت: ولكن الذي قال هذا هو الذي أخبر بما أخبر به من

---

1) رواه أحمد.

2) رواه مسلم.

فرقة الأمة.

قال: أخبرنا بذلك لنحذر ونهيئ أنفسنا لمواجهة أخطار الفرقة التي يمكن أن نتعرض لها.. ولم يخبرنا بذلك لنبرر لأنفسنا ما نقع فيه من اختلاف وفرقة.. فالرسول ﷺ لا ينشر فينا الإحباط، بل ينشر فينا الحذر.

قلت: وما جدوى الحذر؟

قال: سأضرب لك مثالا يبين جدواه.. وتفهم من خلاله النصوص كما يجب أن يفهمها المؤمن السامع من الله.. أتعرف الصبغيات التي تتشكل من أنواعها خريطة الإنسان المكانية والزمانية؟

قلت: أجل.. وقد أصبت في ربط الصبغيات بالزمان.. فللجسم ساعة بيولوجية تجعله يتغير بتغير الدقائق والثواني.

قال: فالصبغيات إذن عبارة عن حروف لأقدار مكتوبة لا بد أن تصيب صاحبها لا محالة.

قلت: أصبت وأخطأت.. أصبت في كونها حروفا لأقدار مكتوبة، وأخطأت في إصابتها لصاحبها لا محالة.. فقد توصل العلم الحديث إلى إمكانية الابتعاد عن تلك الحروف التي تحمل أقدارا تجلب لنا بعض الضرر.

قال: وضح لي مرادك.

قلت: قد يعرف الأطباء المختصون أن فردا من الناس يحمل جينا مسؤولا عن مرض معين.. فينصحونه بمحاولة تفاديه.

قال: وكيف يتفاداه وقد رسم في جيناته؟

قلت: لكل مرض سببان: أصلي، وهو ما رسم في جيناته من حروف العلة، واستفزازي، وهو ما يوفر للمرض دواعي الظهور.

قـال: وهـل يمكن أن يحلم حامـل المـرض الـوراثي أن لا يظهر عليه المرض المسطر في جيناته؟

قلت: أجل.. إذا عرف كيف يـترك علتـه في طـور الكمـون بأن لا يوفر لها دواعي الظهور.

قال: فقـد فهمت إذن سـر إخبـاره ﷺ عن إمكانيـة تعـرض الأمة للفتن فيما بينها.

قلت: لم أفهم.. لقد كنا نتحـدث عن جسـد الأفـراد، لا عن جسد الأمة.

قال: خـالق الجسـدين واحـد.. وقـد أخـبر ﷺ أن المؤمـنين كالجسد.. فاعبر من جسد الفرد إلى جسد الأمة.

قلت: لا طاقة لي بالعبور.

قال: لقد أخبر ﷺ أن هذه الأمـة تحمـل جينـات قـد تسـبب تفرقها واختلافها.. وهو ما قـد يجـر إلى أن يكـوون بأسـها بينهـا شديدا.

قلت: وهذا هو المقدور.

قال: لم يكن ﷺ في هذا الحديث ينبئنا عن المقدور فقــط، بل كان ينبئنا عما يجب أن نفعله لنتفـادى هـذا الـذي سـطر في جينات الأمة.

قلت: كيف نتفاداه وهو مقدور؟

قال: كما يتفادى العليل علله الوراثية بأصـناف التحصـينات التي تمنع استفزاز علله.

قلت: فالنبي ﷺ كان ينصحنا إذن.

قـال: كـل أحـاديث رسـول اللـه ﷺ نصـائح لا يسـتطيع أي شيء في الدنيا أن يعوضها.. ولكنكم تحولونها إلى أشواك تزرع اليأس وتجني الإحباط.

قلت: ولكن كيف لا نحبط.. وقد خصت هذه الأمة بهذه الجينات الخطيرة.. ألا يصاب المريض بالحزن إن علم أن بعض جيناته تختزن السم الزعاف؟

قال: هذا الجين الذي أخبر عنه ﷺ دليل على كمال الأمة، وبشارة بانتشارها.

قلت: كيف ذلك؟

قال: كل كمال لا بد أن يحمل بذور التعدد.. وبذور التعدد هي التي قد تنشئ الاختلاف.. وهو الذي قد ينشئ العداوة.

قلت: فقد انتهى الأمر إلى العداوة.

قال: وقد ينتهي إلى تعدد الكمال..

قلت: لا أفهم هذا.

قال: هذه الأمة تضم الأجناس والألوان المختلفة.. وهي تضم معهم ألسنة متشعبة، وأعرافا متباينة، ومشارب تختلف أذواقها.. وكل هذا الاتساع والانتشار في الطبيعة ينشئ اتساعا وانتشارا في الفكر والفهم والسماع.. وهذا كله موصل للكمال.

قلت: لا أزال قاصرا عن إدراك سر علاقة الكمال بهذا.

قال: أرأيت لو أن تلميذا من الله عليه، فتتلمذ على مشايخ تتعدد مشاربهم ولغاتهم.. فكل يعبر له عن المعلومة بأسلوبه ولغته.. أيهما أكمل: أهو، أم ذلك الذي لم يغادر بلده، ولم يتلق من غير معلم قريته؟

قلت: لا شك أن الأول يكون أكثر نضجا وعمقا، وأقرب إلى الكمال من الثاني.

قال: فكذلك هذه الأمة.. لقد خصها الله بميزتين استدعت ظهور الاختلاف: أما أولهما، فهو أنها عامة للبشر جميعا بطبائعهم المختلفة، وأما الثاني، فهو أنها الرسالة الخاتمة التي هيمنت على الكل، ولم يبق بعدها أي رسالة تنسخها.

قلت: فهمت سر الكمال المؤدي إلى الاختلاف في الأول، ولم أفهمه في الثاني.

قال: إن كونها الرسالة الخاتمة يستدعي ضمها لكل الاحتياجات، ويستدعي كذلك تقبلها لكل المشارب.. وهذا مما ينشئ الخلاف.

قلت: كيف ينشئ الخلاف؟

قال: ينشأ الخلاف عندما ينشأ المتعصبون الذي يتصورون الدين قاصرا على ما فهموه منه.

قلت: فكيف نتفاداه؟

قال: بعلوم وأخلاق من تعلمها وتخلق بها حفظ من آثار هذا لجين الفاتك، فلم يمد سيفه على أخيه، ولم يسلط جيوش لسانه عليه.

قلت: فأين أتعلم هذه العلوم.. وأتدرب على هذه الأخلاق؟

قال: هنا في حصن الوحدة.. فهو الحصن الذي يدرب المستضعفين على ضم القلوب والأرواح لتتوحد في عبوديتها لله.. فعبودية الله تجمع ولا تفرق.

قلت: أرى أجنحة كثيرة في هذه الحصن.. وأرى فيها أمورا لم أرها من قبل.

قال: لهذا الحصن قصة.. ولن تعرف في هذا الحصن من هذا الحصن إلا هذه القصة، وأحسب أنها تكفيك.

قلت: فمن يقصها علي؟

قال: سأفصها عليك أنا..

قلت: أنت !؟

قال: أجل.. لأنها حدثت بين قومي.. وقد تعلمت منها ما رضي قادة هذا الحصن أن يجعلوه برنامجا تدريبيا للمستضعفين

فيه.

***

كانت هناك نخلة قريبة منا تمتلئ بأعذاق التمر الطيب.. فطلبت من صاحبي أن نجلس تحتها لنسمع قصة مدينته التي صارت مدرسة للوحدة في هذا الحصن.

سكت صاحبي برهة، وكأنه يسترجع ذكرياته.. ثم قال: في تلك السنين كنا أهون المستضعفين.. لقد وفر أعداؤنا على أنفسهم شراء السلاح، واكتفوا بأن يبيعوا السلاح لنا لنقدم لهم أجسادنا وفوقها أموالنا.

قلت: أي جنون أصاب قومك يا هذا؟

قال: هو نفس الجنون الذي يصيب قومك.. ألا تراهم بارعون في قتال بعضهم بعضا؟.. ألا ترى أنهم انشغلوا عن التحذير من الشيطان وأولياء الشيطان بالتحذير من تلك الطائفة وتلك الطائفة؟.. ألا ترى أنهم يعبدون أنفسهم وأهواءهم وأعراقهم ومذاهبهم، وهم يحسبون أنهم يعبدون الله.

قلت: صدقت في هذا.. أكمل حديثك عن قومك..

قال: قومي كقومك.. كانوا لا يعرفون من الدين إلا مواطن الخلاف، يحفظونها وينشرونها ويربون أبناءهم عليها.. حتى إذا كبر أبناؤهم حملوا السلاح ليضرب به بعضهم بعضا..

قلت: عرفت كل هذا من قومي.. فحدثني كيف صار هؤلاء المتنافرون مدرسة من مدارس الوحدة.

قال: لقد ولد فينا شباب طيبون اعتزلوا كفتية أهل الكهف لا نراهم ولا نسمع أخبارهم حتى نزلوا علينا ذات يوم، ونحن نشهر أسلحتنا للمعركة الفاصلة بيننا وبين أعدائنا من إخواننا.

قلت: فماذا فعلوا؟

قال: لقد كان في وجوههم من نور الإيمان وسلامة اليقين

وأدب الحديث ما جعل الكل يلتفت إليهم، ليسمع منهم.

قلت: أهم من طائفتك أم من غيرهم؟

قال: هم من طائفتنا ومن غيرهم، ولكن النور الذي ينتشـر على وجوهم جعل منهم طائفة خاصة لا تماثلها أي الطوائف.

قلت: كم كانوا؟

قال: سبعة رجال.. كل واحد منهم جبل من جبال الحكمة.. لقد وقفوا بشـجاعة بين الصـفين، وطلبـوا من كلا الفـريقين أن يسمعوا منهم.

قلت: فهل أجابوا؟

قــال: لم يملكــوا إلا أن يجيبــوا.. ولكنهم ظلــوا مشــهري أسلحتم، وأبوا تركها.

قلت: فماذا فعل حكماؤكم السبعة؟

قال: تقدم أحدهم ورفع صوته الذي امتلأ إيمانا صــائحا في الجموع: يا إخواننا.. لا نشك في غـيرتكم وإخلاصـكم.. ولا نشـك في إيمــانكم بــربكم وتعظيمكم لــه.. ولهــذا نناشــدكم اللــه أن تسمعونا.. لا نقول لكم: ارموا سـلاحكم، فنحن نعلم مـا لـه من قيمة عندكم.. ولكنا نطلب منكم أن تسمعوا كلمة من كل واحد منا..

لقد التجأنا إلى الله في كل تلك السنوات الطويلة أن يعيـد لهذه الأمة وحدتها وقوتها، فعلم كل واحد منا كلمــة من كلمــات الوحدة، وسرا من أسرار الاجتمــاع.. فاســمعوا منــا جميعــا.. ثم

افعلوا بعد ذلك ما بدا لكم.

قلت: فهل سمعوا منه؟

قـال: لم يملكـوا إلا أن يسـمعوا.. فقـد كـان لكلماتـه من الإخلاص ما جعلها بلسما لا تملك القلوب إلا أن تذعن له.

قلت: فهل ستحدثني عن خبر هؤلاء الحكماء مع قومك؟

قال: أجل.. فعلوم هؤلاء الحكماء هي التي يلقنها أهل هـذا الحصن للمستضعفين المتشتتين.

قلت: فحدثني حديثهم.. فقد اشتقت إليه.

بدأ صاحبي يتحـدث.. وسـرح خيـالي معـه يرسـم الأحـداث ويعيشها.

أولا ـ العبودية

تقدم الحكيم الأول بين الصفين، وقال: أول كلمة تجعل قلوبكم على قلب رجل واحد هي العبودية لله.. فأساس كل خلاف تقعون فيه هو عبوديتكم لأهوائكم ونفوسكم وجذوركم..

قالوا: أين الدليل على هذا.. فقد قرأنا الوحيين جميعا فلم نجد فيه ما ذكرت؟

قال: لقد قال الله تعالى مشيرا إلى هذا الأصل العظيم الذي يقوم عليه بنيان التوحيد: إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (الانبياء:92)

قام أحدهم، وقال: هذه الآية تخبر عن أمرين، أما أولهما، فهو الدلالة على وحدة هذه الأمة، والثاني إخبار من الله تعالى لعباده بربوبيته، وأمر لهم بمراعاتها بعبادته.. فأين وجه استدلالك؟

قال الحكيم: من اقتران كلا المعنيين يتولد أصل ابتناء الوحدة على العبودية.. فكأن الله تعالى يذكر لنا وصفة لتحقيق الوحدة والحفاظ عليها.. وهي عبادة الله، والاستغراق في عبادته.

قال الرجل: ولكن القرآن الكريم لم يذكر هذا الارتباط الذي تتوهمه.

قال الحكيم: من تتبع القرآن الكريم وعرف أسرار الارتباط فيه استنبط منه من أنواع العلاج ما لا يستطيع العقل المجرد التعرف عليه..

قام رجل مشهرا سيفه، وهو يقول: لا نريد ان نناقشك في وجه استدلالك.. ولكنا لا نراه في الواقع.. فنحن نقوم الليل، ونصوم النهار ونقرأ القرآن، وأولئك الذين نشهر سيوفنا في وجوههم لا يقلون عنا نشاطا وعبادة..ثم نحن بعد ذلك ــ كما ترانا ـ لاننتهي من حرب حتى ندخل في غيرها.. فكيف تزعم أن

العبودية هي أصل الوحدة؟

قال الحكيم: هذا من العبودية.. وليس هو العبودية.. لقد أخبر ﷺ عن أقوام ذوي صلاة وصيام وقراءة.. وأخبر أنهم لا يجاوزون بقراءته حناجرهم، فقال:(يخرج من ضئضئ هذا قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية لئن أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد)[1] وفي رواية:(لو يعلم الذين يقاتلونهم ماذا لهم على لسان محمد لنكلوا عن العمل)، وفي رواية:(شر قتلى تحت أديم السماء خير قتلى من قتلوه)

اشرأب أحدهم بسيفه وصاح: أراك تدعونا لما تنهانا عنه، فهذا رسول الله ﷺ يأمر بقتلهم.. فكيف تنهانا عنه؟

التفت إليه الحكيم بهدوء، وقال: فأنت تضع نفسك موضع رسول الله ﷺ.. فتزعم بأن غيرك من الفئة المارقة، وأنك أنت من الفئة المنصورة.

قال: فكيف تريدني أن أرى نفسي؟.. أتريدني أن أراها مارقة، فأقتلها؟

قال الحكيم: إذا رأيتها مارقة، فاقتلها بأسياف الرياضة لتعود إلى عبودية ربها.. فإن طغيانها هو الذي صور لها أحقيتها وضلال غيرها..

قال الرجل: ولكني أعين خصومي بذلك على نفسي.. فهم يعتبرونني من المارقين، ويسلون سيوفهم علي لأجل ذلك.. أفأعين على نفسي؟

قال الحكيم: بئس من لم يعن غيره على نفسي.. واسمع مني.. واسمعوا مني كلكم.. لو أن كل واحد منكم نظر إلى نفسه بهذا المنظار، فراح يصحح عبوديته لله.. وراح يتهم نفسه بتجاوزها لحدها وتدخلها فيما لا يعنيها.. ثم راح يسل سيفه على

1) رواه البخاري ومسلم.

نفسه التي سولت له مزاحمة الربوبية ليعيدها إلى عبوديتها.. حينذاك فقط تتوحد قلوبكم على عبودية الله.

نادى رجل من بعيد: أتريدنا أن نفعل ما أمر به بنو إسرائيل من قتل أنفسهم، كما قال تعالى: وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) (البقرة:54) .. ألا تعلم أنا من أمة محمد ﷺ لا من بني إسرائيل؟

قال الحكيم: وهل لأمة محمد ﷺ إلهها الخاص بها.. ولبني إسرائيل إلههم الخاص بهم.. أليس الرب واحدا؟

قال الرجل: ولكنهم أمروا بقتل أنفسهم، ولم نؤمر بذلك.

قال الحكيم: فما دمتم لم تؤمروا بذلك فلم تفعلونه؟

قال الرجل: وهل ترانا نفعل ذلك؟

قال الحكيم: لا أراكم تفعلون إلا ذلك.. ألم تسمع قوله تعالى: وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ (الحجرات: 11)؟

قال الرجل: بلى.. وهي في سورة الحجرات.. وهي تنهى عن اللمز.

قال الحكيم: فهل رأيت رجلا يلمز نفسه؟

قال الرجل: الناس يلمز بعضهم بعضا، ولا يلمزون أنفسهم.

قال الحكيم: ولكن الله تعالى ذكر لمز النفس، ولم يذكر لمز الغير.

قال الرجل: لقد قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، ومقاتل بن حَيَّان في تفسيرها:(لا يطعن بعضكم على بعض)، فالنفس هنا يراد بها الغير.

قال الحكيم: فقتلكم لبعضكم بعضا إذن قتل لأنفسكم؟

سكت الجميع، فقال: لقد ذكر القرآن الكريم ذلك صراحة، فقال: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً) (النساء:29)، فقتل النفس هنا ـ كما يشير إلى قتل النفس ـ يشير إلى قتل الغير.

بل إنه ﷺ اعتبر حب الغير، واعتبارهم كالنفس من علامات الإيمان، فقال:(لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، لا يؤمن أحدكم حتى يأمن جاره شره)(1)

قال رجل منهم: نحن نسلم لما تقول.. بل نسلم لما قال رسول الله ﷺ.. فلا يحل لامرئ أن يقدم رأيه على كلام الله أو كلام رسوله.. ولكنا مع ذلك نرى رأيا لا نشك في موافقتك لنا عليه.

قال الحكيم: وما ترون؟

قال الرجل: أرأيت لو أن عضوا من أعضائك ـ لا قدر الله ـ لم يعد صالحا إلا للبتر، أكنت تتركه ليملأ نفسك ألما، وجسمك سقما.

قال الحكيم: معاذ الله أن أتركه.. ومعاذ الله أن أتسرع في قطعه.

قال الرجل: ولم لا تتسرع بإزالة الداء؟

قال الحكيم: أرأيت لو أصاب الألم رأسك أكنت تذهب للجزار ليقطعه لك؟

قال الرجل: لا.. بل أسرع إلى المسكنات والمهدئات.. ولعلي أظفر بالترياق الذي يسد منافذ الخلل، ويعيد الصحة، وينفي العلل.

قال الحكيم: فافعلوا ذلك مع إخوانكم..

---

(1) رواه ابن عساكر.

قال الرجل: للرأس حكمه الخاص.. وللرجل أحكامها الخاصة.. فالرجل يمكن أن أتسرع فيها، بخلاف الرأس.

قال الحكيم: ولماذا تعتبر إخوانك أقداما يمكنك أن تبترها، ولا تراها رؤوسا محترمة يعز عليك قطعها.

سكت الجميع، فقال: هذا يعود بنا إلى العبودية.. فالعبودية تجعلك تنظر إلى الخلق، وأنت عبد بسيط متواضع لا تملك إلا ما أعطاك الله، فلا تتكبر على أحد من خلق الله، ولا تفخر عليه لأنه أعطاك ما لم يعطه.

قالوا: أنحن نفعل هذا؟

قال: أجل.. وتتشبهون بالشيطان في فعله.. ألم يتكبر إبليس على آدم، بل على أمر الله، لأنه ظن نفسه أعز وأكرم من أن ينحني بهامته لذلك الطين.

قال أحدهم: ما أبعد البون بيننا وبين إبليس، هو تكبر بنفسه وبناره..

قاطعه الحكيم قائلا: وأنتم تتكبرون بآرائكم وطوائفكم ومذاهبكم.. كل يزعم لنفسه احتكار الحق.. بل كل يزعم أنه الطائفة المنصورة، والفرقة الناجية، وأنه يوم القيامة سيكون الفائز الوحيد بالشرب من يد رسول الله ﷺ.. أما سائر الناس، فيساقون إلى جهنم ليسقيهم إبليس من شرابه.

قال رجل منهم: ولكن الحق معنا.. ولنا من الروايات ما يعضده.

قال الحكيم: ولغيركم من الروايات ما يعضد الحق الذي يؤمن به.

قال الرجل: ولكن الحق لا يخفى.. ونور حقنا يطغى على ظلمة باطلهم.

قال الحكيم: فلماذا استعنتم بالسيوف إذن؟.. هل ترون الشمس تبسط أشعتها تحت أسنة الرماح.. دعوا أنوار الحقائق

تشـهر نفسـها بنفسـها.. ودعـوا ظلمـات الباطـل تنكمش بنـور الحق.

قال رجـل منهم: أنت تريـد أن تصـدنا عن غضـبة غضـبناها لله.. نصرة لدين الله.. وحفاظا على صفائه.

قـال الحكيم: فهـل معكم توكيـل من اللـه لتنصـروه بهـذا الأسلوب؟

قال الرجل: لا نحتاج إلى هذا التوكيل، فما بثـه الحـق فينـا من قـوة جعلنـا نستشـعر الفـرق بين أهـل الجنـة وأهـل النـار.. المغفور لهم من أهل الإيمان، والذين حبطت أعمالهم من أهــل البدع والزندقة.

قال الحكيم: فأنت لا تختلف عن ذلـك الـذي أخـبر عنـه ﷺ بأنه اعتقد نفسه موكلا بخزائن الرحمة والمغفـرة يصـرفها لمن يشاء، ويحرم منها من يشاء.

لقد أخبر ﷺ (أن رجلا قال: والله لا يغفر الله لفلان، فقــال الله: من ذا الذي يتألى علي أن لا أغفر لفلان؟ فاني قد غفـرت لفلان، وأحبطت عملك)[1]

وفي حديث آخـر، قـال ﷺ: (ألا أحـدثكم حـديث رجلين من بني إسرائيل؟ كان أحدهما يسرف على نفسه، وكان الآخر يراه بنو إسرائيل أنه أفضلهم في الدين والعلم والخلق، فـذكر عنـده صاحبه، فقال: لن يغفر الله له، فقـال اللـه لملائكتـه: (ألم يعلم أني أرحم الراحمين؟ ألم يعلم أن رحمتي سبقت غضبي؟ فـاني أوجبت لهذا الرحمة، وأوجبت على هذا العذاب، فـذا تتـألوا على الله)[2]

وفي حديث آخـر قـال ﷺ:(قـال رجـل لا يغفـر اللـه لفلان، فأوحى الله إلى نبي من الانبياء أنها خطيئة، فليسـتقبل العمـل)

1) رواه مسلم.

2) رواه أبو نعيم في الحلية وابن عساكر.

(1)

وفي حديث آخر ورد ما هو أعظم من ذلـك، فقـد قـال ﷺ: (كان رجل يصـلي، فلمـا سـجد أتـاه رجـل فـوطئ على رقبتـه، فقال الذي تحته: والله لا يغفر لك الله أبدا، فقال الله عزوجـل: تألى عبدي أن لا أغفر لعبدي، فاني قد غفرت له)(2)

وقد سمى ﷺ هؤلاء الذين زعمـوا لأنفسـهم امتلاك خـزائن الجنـان (المتـألين)(3)، فقـال:(ويـل للمتـألين من أمـتي، الـذين يقولون: فلان في الجنة، وفلان في النار)(4)

بـل أخـبر ﷺ عن هلاك هـذا النـوع من النـاس، فقـال:(إذا سمعت الرجل يقول: هلك الناس فهو أهلكهم)(5)، وقال ﷺ:(إذا قال الرجل: هلك الناس فهو أهلكهم)(6)

قال الرجل: ولكنا لا نقول ذلك.

قال الحكيم: بل تقولونه، وتصرون عليـه.. أليس كـل منكم يزعم أنه الفرقة الناجية.

سكت الجميع، فقـال: وذلـك لا يفهم إلا على معـنى واحـد، وهو أن غيره هالـك.. لقـد قيـل لكم لا تقولـوا لغـيركم:(هالـك)، فتلاعبتم كمـا تلاعب أهـل السـبت، فقلتم:(ليس نـاج)، وأنتم تعلمون أن عدم نجاته لا يعني إلا هلاكه.

قال الرجـل: ولكن الرسـول ﷺ أخـبر عن نجـاة الواحـدة..

---

1) رواه الطبراني في الكبير.

2) رواه الطبراني في الكبير.

3) معنى يتألى : يحلف والالية اليمين.

4) رواه البخاري في التاريخ.

5) رواه مالك وأحمد ومسلم وأبو داود .

6) رواه أحمد ومسلم وأبو داود .

أفتلغي كلام رسول الله ﷺ؟

قال الحكيم: وهل عندك صك بأنك منها.

قال الرجل: لقد أخبر ﷺ عن أوصافها، فذكر أنها ما عليه ﷺ وأصحابه.

قال الحكيم: وهل تطيق أن تنسب لنفسك هذا.. إن الذين كانوا معه ﷺ كانوا أعظم تواضعا من أن ينسبوا لأنفسهم ما تنسبونه لأنفسكم.. بل كانوا يتخوفون على أنفسهم من النفاق.. ألم تسمع ما ورد عن سلفكم في ذلك؟

قال أحدهم: بلى.. وأروي من ذلك الكثير، ومن ذلك قول ابن أبي مليكة:(أدركت ثلاثين ومائة - وفي رواية خمسين ومائة - من أصحاب النبي ﷺ كلهم يخافون النفاق)

وقيل للحسن: إن قوماً ما يقولون إنا لا نخاف النفاق، فقال:(والله لأن أكون أعلم أني بريء من النفاق أحب إلي من تلاع الأرض ذهباً)، وكان يقول:(إن من النفاق اختلاف اللسان والقلب، والسر والعلانية، والمدخل والمخرج)

قال آخر: وقد كانوا يستدلون بالخوف من النفاق على الإيمان، وقد روي أن رجلا قال لحذيفة:(إني أخاف أن أكون منافقاً)، فقال:(لو كنت منافقاً ما خفت النفاق إن المنافق من أمن النفاق)

قال آخر: وكانوا يرون كل المظاهر التي حادت بالمسلمين عن الجادة من النفاق، حتى قال حذيفة: المنافقون اليوم أكثر منهم على عهد النبي ﷺ فكانوا إذ ذاك يخفونه وهم اليوم يظهرونه).. وقيل للحسن البصري:(يقولون: أن لا نفاق اليوم)، فقال:(يا أخي لو هلك المنافقون لاستوحشتم في الطريق).. وقال هو أو غيره:(لو نبتت للمنافقين أذناب ما قدرنا أن نطأ على الأرض بأقدامنا)

قال الحكيم: فهل منكم من يرى نفسه بهذه الرؤية؟.. أم أنكم تكتفون بأن تجعلوا من أنفسكم قضاة محصنين بالصكوك

التي تحميكم، ولا تحمي سواكم.

سقط سيف أحدهم، وقال: صدقت ـ سيدنا الحكيم ـ.. لقد أنطقك الله بالحكمة.. لقد كنت إلى هذه اللحظة أعتبر نفسي على الحق الذي لا يخالفني فيه إلا مبطل..

لقد كتبت رسالة في العقيدة، قلت في خاتمتها بكل كبرياء:(فمن أقر بما في هذا الكتاب وآمن به واتخذه إماما ولم يشك في حرف منه، ولم يجحد حرفا منه فهو صاحب سنة وجماعة كامل قد كملت فيه الجماعة ومن جحد حرفا مما في هذا الكتاب أوشك في حرف منه أو شك فيه أو وقف فهو صاحب هوى)(1)

ناداه صاحبه: ويلك يا هذا أتترك دينك لهوى نطق به من زعم لنفسه الحكمة؟

رد عليه: ابتعد عني.. فوالله ما شجعني على تلك المقولة وغيرها غيركم.. أنتم الذين نفختم في أهواء الكبرياء.. فرحت أتكبر على طوائف الأمة ومذاهبها أوزع الضلال.. وأرمي بالبدعة.. كل من لم يبلغ عقلي مبلغ علمه.

أذكر مرات كثيرة أني كنت أطلب من يخالفني أو من يريد أن يحاورني بالمباهلة..

وإذا ذهبت إليها صببت عليه اللعنات والدعوات، وأنا أستشعر بأني إله يطرد من يشاء، ويقبل من يشاء.

وأذكر مرة أن بعضهم أجلسني بجانب بعض هؤلاء، فامتلأت نفسي غيظا أن أجلس بجانبه..

لقد نسيت كل ما ورد في النصوص الكثيرة من الكبر الذي سماه الشيطان لي عزة بالحق.. نسيت ما روي في الحديث أن النبي ﷺ كان جالسا في جماعة من أصحابه فذكروا رجلا فأكثروا من الثناء عليه ــ كما يثني علي أصحابي ــ فبينما هم كذلك إذ طلع رجل عليهم ووجهه يقطر ماء من أثر الوضوء،

(1) شرح السنة : 58.

وقد علق نعله بين يديه وبين عينيه أثر السجود فقالوا: يا رسول الله هو هـذا الرجـل الـذي وصـفناه، فقـال ﷺ:(أرى على وجهـه سفعة من الشيطان) فجاء الرجل حتى سلم وجلس مع القـوم، فقال النبي ﷺ:(نشـدتك اللـه هـل حـدثت نفسـك حين أشـرفت على القوم أنه ليس فيهم خير منك؟) فقال:(اللهم نعم)[1]

قـام أحـدهم، وقـال: نسـلم لكـل هـذا.. ولكن أليس من شروط الإيمان الجزم.. ولا يصح إيمان الشـاك الـذي يشـك في كونه على الحق أو الباطل.

قال الحكيم: أنـا لم أقـل لكم شـكوا في الحـق الـذي أنتم عليه.. ولكني قلت لكم: اعبـدوا اللـه وأنتم تتنـاولون الحـق من الله.

قال الرجل: أبالصلاة، أم بالصيام؟

قـال الحكيم: بالصـلاة والصـيام، ألم يقـل اللـه تعـالى: ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّـبْرِ وَالصَّـلاةِ وَإِنَّهَـا لَكَبِـيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِـعِينَ) (البقرة:45)

قال الرجل: فنحن نعبده بهما.

قال الحكيم: الصلاة تصلك بالله.. فترى الحق الذي عنـدك هبة من الله.. ولولا أن الله هداك إليه ما اهتديت.

قال الرجل: فإلام تؤديني هذه المعرفة؟

قـال: إلى بحـر التواضـع والتسـليم للـه.. فـترى من عين العبوديـة أن اللـه يمكن أن يحـول من السـحرة أوليـاء.. ومن الأولياء أشقياء.. ألم تسمع خبر سحرة موسى عليه السلام.

قال الرجل: بلى.. فقد أصبحوا أشـقياء.. وأمسـوا أوليـاء.. وباتوا شهداء.

قال الحكيم: وخبر بلعم بن باعوراء؟

---

1) رواه أحمد والبزار والدارقطني.

قال الرجل: ذاك الشقي الذي آتاه الله العلم، فانسلخ منه إلى الهوى، فصار أدنى منزلة من الكلاب.

قال الحكيم: فعبوديتك لله تجعلك ترى كل من تعتبره صاحب هوى كسحرة موسى يمكن أن يسبقوك في أي لحظة.. ويجعلك ترى من نفسك.. أو في زاوية من زاوية نفسك شقيا يمكن أن ينقض على حقائقك كل لحظة، فيحولها دعاوى، ويحولك دعيا.

قال الرجل: صدقت.. ولهذا يستشعر الصالحون أن الهداية التي ينعمون بها هدية إلهية، لا جهدا اجتهدوه يحق لهم أن يفخروا به على غيرهم..

قال آخر: صدقت.. فالله تعالى يذكر عن الصالحين أقوالا تنبئ عن هذه العبودية الخالصة، فالله تعالى يقول:﴿ قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُنَا وَلا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ (الأنعام: 71)، وهو يقول:﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ (لأعراف:43)، ويقول على ألسنتهم:﴿ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ (ابراهيم:12)، ويقول:﴿ رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (آل عمران:8)

قال آخر: وقد كان ﷺ عين البراءة من نسبة الأشياء إليه، وقد كان يرتجز مع أصحابه:

اللهم لولا أنت ما … ولا تصدقنا ولا
فأنزلن سكينة … وثبت الاقدام إن

قال الحكيم: تلك الصلاة.. وهي تهديك إلى الصيام الذي يطهر يدك من قتل أخيك.. ويطهر لسانك من اللمز والنبز.. ويطهر قلبك من الحقد والحسد.. فلا تكمل صلاة من امتلأ قلبه أحقادا وعللا.

قام رجل مشهرا سيفه، وهو يقول: نحن لا تمتلئ قلوبنا أحقادا.. بل تمتلئ بغضا في الله.. فنحن الذين هدانا الله إلى الإيمان الحق نغضب أن يمس صفاء الإيمان أو يحرف.. ألا ترى أنك تغضب إن أصيبت الهدية التي تهدى إليك من محبوبك بأي أذى؟

قال الحكيم: نعم، إن الإيمان هدية من الله.. ولكن من قال لك أو لغيرك أنك ظفرت بذلك الإيمان الحق الذي يخول لك أن تحمل غيرك عليه بالسيف.

قال الرجل: هذا من البداهة.. فنحن نستشعر الحق الذي وهبناه ونتذوقه..

قال الحكيم: لقد كان السلف الذين أراكم جميعا تعتبرونهم مصادركم المعرفية والسلوكية على غير هذا المنهاج.. لقد كان سفيان الثوري يقول:(من قال أنا مؤمن عند الله فهو من الكذابين، ومن قال أنا مؤمن حقاً فهو بدعة)، قيل له: فماذا تقول؟ قال:﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا ﴾ (البقرة: 136)..

وكان يقول:(نحن مؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله وما ندري ما نحن عند الله تعالى؟)

وقيل للحسن: أمؤمن أنت؟ فقال إن شاء الله، فقيل له: لم تستثني يا أبا سعيد في الإيمان؟ فقال: أخاف أن أقول نعم، فيقول الله سبحانه:(كذبت يا حسن) فتحق علي الكلمة.

وكان يقول:(ما يؤمنني أن يكون الله سبحانه قد اطلع علي في بعض ما يكره فمقتني، وقال اذهب لا قبلت لك عملاً؛ فأنا أعمل في غير معمل)

وقال إبراهيم بن أدهم:(إذا قيل لك أمؤمن أنت؟ فقل: لا إله إلا الله)، وقال مرة:(قل أنا لا أشك في الإيمان، وسؤالك إياي بدعة)

وقيل لعلقمة: أمؤمن أنت؟ قال: أرجو إن شاء الله.

نادى رجل من القوم: أراك تريد إقناعنا بالتخلي عن أصل من الأصول التي لا يكون الإيمان إيمانا إلا بتوفرها.

قال الحكيم: تقصد الجزم وترك الارتياب..

قال الرجل: أجل.. فما وجه ما ذكرت من الاستثناء مع أن المؤمن ينبغي أن يجزم إيمانه، بل لا يصح إيمانه إلا بذلك، ألم تسمع الآيات الكثيرة التي تصف المؤمين ببرد اليقين، يبنما تصف الجاحدين والكافرين بالشك والريبة، فالله تعالى يذكر الكفار فيقول: ﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ﴾ (النمل:66)، ويقول:﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾ (سبأ:54)، ويقول:﴿ أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ (صّ:8)، ويقول:﴿ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ (الدخان:9)

بينما يصف المؤمنين باليقين وزيادة الإيمان وترك الشك، فيقول:﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحجرات:15)، ويقول:﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (لأنفال:2)، ويقول:﴿ وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَاناً فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ (التوبة:124)

بل فوق ذلك يصفهم بخلاف ما ذكرت من الإعلان بالإيمان والفخر به، فالله تعالى يقول عن المؤمنين:﴿ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (المائدة:83)، ويقول:﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ (المائدة:111)، ويقول:﴿ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ (المؤمنون:109)، ويقول:﴿ وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ (القصص:

53)، ويقول على لسان الجن: وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلا يَخَافُ بَخْساً وَلا رَهَقاً (الجن:13)

قال الحكيم: صدق الله العظيم.. ولا يصح إيمان بلا جزم ويقين وثبات.. وأنا لا أتحدث عن هذا، إنما أتحدث عما يتنافى مع العبودية من ادعاء الإيمان.. ففرق بين الإيمان وادعاء الإيمان.. ألم تسمع الله تعالى ينفي الإيمان عن أقوام كثيرين ادعوه؟

قال الرجل: بلى.. فالله تعالى يقول: وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ (البقرة:8)، ويقول عن بعض الأعراب: قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْأِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ (الحجرات: 14)، ويقول عن غيرهم من المنافقين وأهل الكتاب: يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ (المائدة: 41)، ويقول: وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ (المائدة:61)

قال الحكيم: ولهذا وقف الصالحون العارفون بالله مع هذه النصوص، فراحوا يتهمون أنفسهم وقصورهم..

ثم التفت للرجل، وقال: أجبني.. هل يمكن أن تصف نفسك بأنك من الخاشعين أو المقربين أو الصديقين؟

قال الرجل: لا.. وأنا عند نفسي أقل من ذلك بكثير.. ثم إني سمعت الله تعالى وهو ينهانا أن نزكي أنفسنا، فيقول: فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى (النجم: 32)، ويقول: أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (النساء: 49)

قال الحكيم: ومثل ذلك الإيمان.. بل الإيمان هو الأساس لكل أوصاف الكمال.. فلا يكون الشخص مقربا ولا صديقا ولا خاشعا بدون إيمان.. ولهذا خشي الصالحون أن يدعوا ما هم مقصرون فيه.

قال الرجل: ولكن الشك محرم.

قال الحكيم: شك الصالحين ليس شكا في إيمانهم، وإنما هو شك في قبول ذلك منهم، ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ (المؤمنون:60)

قال الرجل: بلى.. وقد سئل رسول الله ﷺ، عن تفسيرها، وهل هي في الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر، وهو يخاف الله عز وجل؟ فقال ﷺ:(لا، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق، وهو يخاف الله عز وجل)[1]

قال الحكيم: فهذا يدل على ذلك ويؤكده.. بل ورد هذا النص القرآني في سياق يبين الحال التي يكون عليها المؤمن من الخشية والعبودية والتواضع، فالله تعالى يصف عباده المؤمنين بالخشية المؤدية للتواضع قبل وصفهم بالإيمان، فيقول:﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآياتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ﴾ (المؤمنون:56 ـ 57)، أي هم مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح، مشفقون من الله خائفون منه، وجلون من مكره بهم.

قال الرجل: بورك فيك.. وقد ذكرتني بقول الحسن البصري:(إن المؤمن جمع إحسانا وشفقة، وإن المنافق جمع إساءة وأمنًا)

قال الحكيم: فقارن بين هذا وبين من يستعلي بإيمانه، ويتسلط به، ويقاضي الخلق على أساسه، ثم لا يرضى إلا أن يرميهم بالكفر أو البدعة أو الزندقة.

نهض رجل آخر، وقال: نحن نسلم بهذا.. وهذا قد يصح مع الأعمال لا مع أصل الإيمان.. أرأيت لو أنك أخبرت عن نفسك بأنك رأيت شيئا قد رأيته حقيقة.. أليس ذلك شيئا طبيعيا لا حرج عليك في ذكره: ولا تعتبر بأنك زكيت نفسك بذلك؟

---

1) رواه أحمد الترمذي وابن أبي حاتم.

قال الحكيم: ولكن الإيمان أخطر من ذلك بكثير.. إن الإيمان غيب.. وهو إيمان بالغيب.. بخلاف ما ذكرت من الشهادة..

قال الرجل: ولكن هذا الغيب له ما يدل عليه في الشهادة.

قال الحكيم: وهذا هو الذي يمنعك من التعالي بالإيمان.. ألم تسمع الله يقصر وصف الإيمان على أناس مخصوصين بلغوا القمم العالية من العمل الصالح؟

قال الرجل: بلى.. فالله تعالى يقول: وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (لأنفال:74)

ويعبر القرآن الكريم بصيغة الحصر التي تقصر الإيمان على من اتصفوا بأوصاف معينة، فيقول تعالى: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (لأنفال:2)، ويقول: إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (الحجرات:15)

ويصف الصادقين بأوصاف كثيرة، فيقول: لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ (البقرة:177)، فشرط عشرين وصفاً كالوفاء بالعهد والصبر على الشدائد.

ومثل ذلك يقول رسول الله ﷺ:(الإيمان بضع وسبعون باباً أدناها إماطة الأذى عن الطريق)[1]

قال الحكيم: فبمثل هذا تصنف درجات المؤمنين..

---

1) رواه البخاري ومسلم.

قال الرجل: وهل ترانا نصنف الناس بغير ذلك؟

قال الحكيم: أجل.. أنتم تصنفون المؤمنين بحسب مواقفهم من بعض فروع العقائد.. فترفعون الفاسق غليظ القلب الذي يعتقد ما تعتقدونه إلى أعلى درجات الإيمان.. بل وتفضلونه على الصائم القائم الخاشع القانت إذا كان يخالفكم في تلك الفروع التي قسمتم الخلق على أساسها.

قال الرجل: ولكن البدعة أخطر من الفسق.. ألم تسمع قول ابن تيمية يحكي حكاية حصلت له مع بعض المبتدعة، فقال:(كان قد قال بعضهم: نحن نتوب الناس، فقلت: مماذا تتوبونهم؟ قال: من قطع الطريق والسرقة ونحو ذلك، فقلت: حالهم قبل تتويبكم خير من حالهم بعد تتويبكم، فإنهم كانوا فساقاً يعتقدون تحريم ما هم عليه ويرجون رحمة الله ويتوبون إليه أو ينوون التوبة، فجعلتموهم بتتويبكم ضالين مشركين خارجين عن شريعة الإسلام، يحبون ما يبغضه الله ويبغضون ما يحبه الله، ونثبت أن هذه البدع التي هم وغيرهم عليها شر من المعاصي)[1]

قال الحكيم: كلا من البدعة والفسوق انحراف عن الطريق الصحيح الذي يقتضيه الإيمان.. ولكن هناك فرقا بينهما لم تلاحظوه.

قال الرجل: وما هو؟

قال الحكيم: إن الفسق لا شك فيه من ناحية تحريم الشرع له، وتأثيره على الذات والمجتمع.. ولكن البدعة محل شك.. لأن كل فرقة تعتقد بدعية من خالفها.. وهي تتوهم أفضليتها بحسب ذلك.

بل ليس الأمر قاصرا على ذلك، فبعضهم يرمي بالبدعة أبسط التصرفات مع أن الشرع وسع فيها.. وستسمعون من إخواني من الحكماء من يوضح لكم هذا.

---

1) جامع الرسائل: 1/72.

نهض رجل آخر، وقال: فنحن بحمد الله قد جمعنا من أوصاف المؤمنين ما ورد في النصوص.. ونحن لا نتحدث عن ذلك تزكية.. وإنما تحدثا بنعمة الله.. ألم تسمع قوله تعالى: ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى:11)

قال الحكيم: فرق بين أن تتحدث بنعمة الله عليك، وبين أن تتباهى بها، وتلعن مخالفيك لأجلها.. ثم من يضمن لك بأن هذه النعمة ستستمر لك.. أين الأمن من مكر الله؟

قال الرجل: وأين حسن الظن بالله؟

قال الحكيم: حسن الظن بالله يدعوك للتواضع لله ولعباد الله، فلا تحكم على أحدهم بالشقاء ما دامت فيه عين تطرف، فقد يتوب الله عليه في أي لحظة، ولا تحكم لنفسك بالسعادة، فقد يأتيك الشقاء من حيث لا تعلم.. ألم تسمع الصالحين، وهم يتخوفون من سوء الخاتمة؟

قال الرجل: بلى.. وقد كان أبو الدرداء يحلف بالله ما من أحد يأمن أن يسلب إيمانه إلا سلبه.. وقد قال بعض العارفين: (لو عرضت علي الشهادة عند باب الدار والموت على التوحيد عند باب الحجرة لاخترت الموت على التوحيد عند باب الحجرة لأني لا أدري ما يعرض لقلبي من التغيير عن التوحيد إلى باب الدار؟)

قال الحكيم: أتدري ما مثل ذلك؟

قال الرجل: ما مثله؟

قال الحكيم: مثله مثل رجل صائم.. فإن صومه متعلق باستمراره على صومه إلى أن تغرب الشمس، فلو لم يبق بينه وبين المغرب غير لقمة واحدة، فأكلها بطل صومه جميعا.

فلذلك انشغل الأذكياء بمراعاة خواطرهم حتى لا تفسدها الوساوس والأوهام، وانشغل المغفلون بالبحث في سرائر الناس لا ليصلحوهم، وإنما ليتيهوا عليهم.. ويلمزوهم، وينبزوهم، ويقاتلوهم، ويقتلوهم.

ما وصل الحكيم من حديثه إلى هـذه الموضـع حـتى انحنت كثير من السيوف، وسقط بعضها.. وهرع رجال يقبلون إخـوانهم ممن كانوا يهمون بقتالهم، ويعـانقوهم، ويـذرفون الـدمعات بين ذلك.

ثانيا ـ الإسلام

قام الحكيم الثاني بين الصفين، وقال: لقد حدثكم صـاحبي عن العبودية، وأنا سأحدثكم عن الإسلام.. فالإسلام هو الطريـق إلى الوحدة.. ولن تتوحدوا إلا إذا استشعرتم الإسلام، وغلبتمـوه على كل المشاعر.

قال بعضهم: كيف تقول ذلـك.. ونحن مـع كوننـا مسـلمين، لم يصرفنا ذلك عن قتـال بعضـنا بعضـا.. فكيـف يكـون الإسـلام أصلا من أصول الوحدة؟

قـال الحكيم: أجيبـوني .. مـا التسـمية الـتي ارتضـاها اللـه لكم، وخصكم بها من دون سائر الملل والنحل؟

نهض أحـدهم، فقـال: لا شـك أنهـا الإسـلام، فاللـه تعـالى يقـول: مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْـرَاهِيمَ هُـوَ سَـمَّاكُمُ الْمُسْـلِمِينَ مِنْ قَبْـلُ (الحج: 78)

قال الحكيم: وهل هذا الاسم الذي ارتضـاه اللـه لكم اسـم شريف يستحق أن يفخر بـه صـاحبه المتصـف بـه، أم أنـه اسـم ينفر منه، وتحن نفسه لأن ينادى بغيره.

قال الرجل: اتق الله يا رجل.. لقد حسبناك حكيمـا.. كيـف تقول هذا؟.. والله لولا أنكم ناشدتمونا الله لفصـلت رأسـك عن جسدك.

قال الحكيم: ولم؟

قـال الرجـل: لأن سـؤالك يحمـل تحقـيرا لاسـم الإسـلام العظيم الذي ارتضاه الله لنا.

قال الحكيم: بورك فيك، وفي إخلاصك وصدقك.. وأنا والله لا أود لرأس يحمل أي احتقـار للإسـلام أن يبقى على جسـدي.. ولكني أسألك: هل هنـاك من بين الملـل من رغبـوا عن تسـمية الله لهم بالمسلمين، فسموا أنفسهم بما ارتضته لهم أهواؤهم؟

قال الرجل: أجل.. وهم كثير، وقد ضرب الله لنا المثل عنهم بالفريقين من أهل الكتاب من اليهود والنصارى.. فمع أن أصول ملتهم إبراهيمية حنيفية مسلمة إلا أنهم رغبوا عنها كما قال تعالى:﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (البقرة:135)

بل إنهم اشتدوا في انصرافهم عن الإسلام الذي ارتضاه الله لهم، فراحوا يزعمون أن الجنة خاصة بمن انتحل نحلتهم، كما قال تعالى:﴿ وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة:111)

ولم يكتفوا بذلك.. بل راحوا يزعمون أن إبراهيم ﵇ الذي اختار اسم الإسلام وملة الإسلام كان مثلهم يهوديا أو نصرانيا، وقد رد الله عليهم ذلك أبلغ رد، فقال:﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْأِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ هَاأَنتُمْ هَؤُلاء حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيّاً وَلاَ نَصْرَانِيّاً وَلَكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴾(آل عمران:65 ـ 68)

بل لم يكتفوا بإبراهيم ﵇.. فقد راحوا ينسبون كل أنبيائهم إلى اليهودية أو النصرانية، كما قال تعالى:﴿ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُوداً أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (البقرة:140)

وقد أخبر الله تعالى في القرآن الكريم أن أديان كل الأنبياء كانت الإسلام.. وقد ذكر الله وصية يعقوب ﵇ لأبنائه، فقال:﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (البقرة:133)

بل أخبر الله عن فرعون أنه عندما أدركه الغرق قال: ﴿ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرائيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (يونس:90) وفي هذا دليل على أن موسى ﷺ دعاه إلى الإسلام، ولم يدعه إلى دين غيره.

قال الحكيم: بورك فيك.. فقد آتاك الله علما بكتابه.. فأجبني: هل أخبر ﷺ أن هذه الأمة ستتبع سنن من قبلها.

قال الرجل: أجل.. وقد ورد ذلك في نصوص كثيرة، فالنبي ﷺ يقول في الحديث المتفق على صحته:(لتتبعن سنن من كان قبلكم، حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه)، قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال:(فمن؟)(1)

وفي حديث آخر يقول ﷺ:(لتأخذن أمتي مأخذ القرون قبلها شبرا بشبر وذراعا بذراع)، قالوا: فارس والروم؟ قال: (فمن الناس إلا أولئك؟)(2)

قال الحكيم: ألم يخبر الله تعالى عن اليهود والنصار أنهم اختلفوا، وعوقبوا باختلافهم، حيث ألقيت بينهم العداوة والبغضاء؟

قال الرجل: أجل.. وقد ورد ذلك في آيات كثيرة منها قوله تعالى في حق النصارى: ﴿ وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (14)﴾ [المائدة: 14]، ومنها قوله في حق اليهود: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: 64]

---

1) رواه البخاري ومسلم .

2) رواه البخاري.

قال الحكيم: وهل أخبر الله تعالى عن سبب ذلك؟

قال الرجل: أجل.. لقد كان سبب ذلك تضـييعهم للمواثيـق التي عاهدوا الله عليها.

قال الحكيم: فهل نص الله تعالى على تلك المواثيق؟

قال الرجل: أجل.. وذلك في مواضع من القـرآن الكـريم.. منها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـاقَ بَنِي إِسْـرَائِيلَ لَا تَعْبُـدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْـنًا وَأَقِيمُـوا الصَّـلَاةَ وَآتُـوا الزَّكَـاةَ ثُمَّ تَـوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [البقرة: 83]

قـال الحكيم: ومن أهم تلـك المواثيـق مـا نص عليـه قولـه تعـالى: ﴿وَإِذْ أَخَـذْنَا مِيثَـاقَكُمْ لَا تَسْـفِكُونَ دِمَـاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُـونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ [البقرة: 84]

قــال الرجــل: أجــل.. فهــذه الآيــة تنص على بعض تلــك المواثيق.

قال الحكيم: فهل أخذ على هذه الأمة من المواثيق ما أخذ على اليهود والنصارى؟

قال الرجـل: أجـل.. فكـل مـا ورد في القـرآن الكـريم من وصايا هي مواثيق الله التي أخذها على هذه الأمة.

قال الحكيم: أليس منها قوله ﷺ: (لا ترجعـوا بعـدى كفـارا يضرب بعضكم رقاب بعض) [1]؟

قال الرجل: بلى .. ذلـك صـحيح، فتلـك من وصـايا رسـول الله ﷺ لهذه الأمة؟

قال الحكيم: ألا ترون أنكم تخالفون هذه الوصية، وتقعــون فيما وقعت فيه الأمم من قبلكم من حرب بعضها لبعض؟

قــال الرجــل: لكن حــروبهم لم تكن مشــروعة.. وحربنــا

---

1) رواه البخاري ومسلم .

مشروعة، لأننا نحارب من ابتدع في الدين، وراح يحرفه.

قال الحكيم: لكني رأيت جميعكم أنتم وهم تصلون وتصومون وتزكون وتحجون.. وجميعكم تشهدون أن لا إله إلا إلله وأن محمدا رسول الله.. وجميعكم تقرون بالقيم العظيمة التي جاء القرآن الكريم بالدعوة إليها.. ألا يكفي هذا كله لوحدتكم؟

قال الرجل: لا .. لا يكفي هذا كله.. فقد وضع سلفنا الصالح الكثير من نواقض الإيمان، والتي قد يقع فيها من ذكرت من الناس.. بل لا يقع فيها في العادة إلا من كثرت عبادته.

قال الحكيم: أترغبون عن نواقض الإيمان التي وضعها رسول الله ﷺ إلى نواقض الإيمان التي وضعها مشايخكم؟

قال الرجل: وهل وضع رسول الله ﷺ نواقض للإيمان؟

قال الحكيم: وهل يمكن أن يكمل دين قبل أن تسيج بالسياج الذي يحميه.

قال الرجل: فهلا ذكرت لي ما ذكر رسول الله ﷺ.

قال الحكيم: لقد قال رسول الله ﷺ في الحديث الذي تصححونه، وتتفقون على تصحيحه: (من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله، فلا تخفروا الله في ذمته) (1)

وفي حديث آخر أن رجلا جاء إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد، ثائر الرَّأس، يُسمع دويُّ صوتِه، ولا يفقه ما يقول، حتى دنا، فإذا هو يَسألُ عن الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: (خمسُ صلواتٍ في اليوم واللَّيلة)، فقال هل عليَّ غيرها؟ قال: (لا، إلاَّ أن تَطوَّع)، قال رسول الله ﷺ: (وصيام رمضان)، قال هل عليَّ غيرُه؟ قال: (لا، إلاَّ أن تَطوَّع)، قال: وذَكَر رسول الله ﷺ الزكاة، قال هل عليَّ غيرها؟ قال: (لا، إلاَّ أن تَطوَّع)، قال: فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أَزيد على هذا ولا أنقص، قال

(1) رواه البخاري ومسلم.

رسول الله ﷺ: (أفْلحَ إنْ صَدَق) [1]

وفي حديث آخر قال ﷺ: (خمس صلوات كتبهنَّ الله على العباد، مَن أتى بهنَّ لم يُضيِّع منهنَّ شيئًا استخفافًا بحقهنَّ، كان له عند الله - تبارك وتعالى - عهد أن يُدخلَه الجنة، ومَن لم يأتِ بهن، فليس له عندَ الله عهد، إن شاء عذَّبه، وإن شاء غفر له) [2]

قال الرجل: لكن هذا الحديث كما نص مشايخنا مخصص عمومه، ومقيد مطلقه.. ولذلك يمكن أن يقع في الكفر والبدعة والشرك من فعل كل هذه الأمور.. وقد كتب بعض مشايخنا في ذلك رسائل كثيرة تبين أن تلك الطائفة التي نحاربها قد وقعت في الشرك.. ولا ينفع مع الشرك طاعة.

قال الحكيم: لكني سمعتهم يشهدون أن لا إله إلا الله.. فكيف يكون مشركا من يقولها؟

قال الرجل: من وقع في نواقضها وقع في الشرك، وأصبح مرتدا .. وحل دمه بذلك.

قال الحكيم: لكنه إن تأول ذلك .. أو اعتقد أن ما هو فيه ليس شركا.. وكان له برهان على ذلك.. وكان له من العلماء من يسانده .. ألا ينفعه كل ذلك لتعذروه؟

قال الرجل: لا .. لا ينفعه كل ذلك.. بل هو مشرك .. بل هو أشد كفرا من اليهود والنصاري كما نص على ذلك علماؤنا.

قال الحكيم: فهل تعرف حديث الذي طلب من أهله أن يحرقوه إن هو مات؟

قال الرجل: أجل .. وكيف لا أحفظه وهو في صحيح البخاري ومسلم اللذين أجمعت الأمة على صحتهما.. ولا يرد أحاديثهما إلا زنديق.

---

1) رواه البخاري.

2) رواه أحمد، وأبو داود، والنسائي.

قال الحكيم: فهلا رويته لي.

قال الرجل: أجل.. ولدي سند طويل به، وأجازني في روايته مشايخي الكبار.. ونصه هو قوله ﷺ: (كان رجل يسرف على نفسه، فلما حضره الموت، قال لبنيه: إذا أنا متّ، فأحرقوني، ثم اطحنوني، ثم ذروني في الريح، فوالله لئن قدر علي ربي ليعذبني عذاباً ما عذبه أحداً. فلما مات فُعِل به ذلك، فأمر الله الأرض فقال: اجمعي ما فيك منه، ففعلت، فإذا هو قائم. فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: يا رب خشيتك. فغفر له)[1]

قال الحكيم: بورك فيك وفي حفظك.. أخبرني وكن صادقا.. لو أن هذا الرجل وقع بين أيديكم، فبم تحكمون عليه؟

سكت الرجل، فقال الحكيم: لا شك أنكم ستحكمون عليه بالكفر، لأنه أنكر قدرة الله، أو تصور الله عاجزا عن أن يجمع ذراته.

قال الرجل: أجل.. ولكن لجهله عذره الله سبحانه وتعالى.

قال الحكيم: فلم لا تعذرون خلق الله.. فالله هو الذي يعلمهم وهو الذي يربيهم.. وهو الذي ينقلهم من حال إلى حال إلى أن يرتقوا في سلم الكمال الذي كتبه الله لهم.

قال الرجل: إذا فعلنا ذلك.. فستغرق هذه الأمة في متاهات الضلالة، ولن تبقى فيها أي فرقة ناجية.

قال الحكيم: ألم يعطنا الله تعالى صفات الفرقة الناجية، بل الفالحة، بل الفائزة بعز الأبد؟

سكت الرجل، فقال الحكيم: بلى .. وقد نص على ذلك في مواضع من القرآن الكريم منها قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (1) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (2) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (3) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (4) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (5) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ

[1] رواه البخاري ومسلم.

فَــإِنَّهُمْ غَيْــرُ مَلُــومِينَ (6) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِــكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَـادُونَ (7) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْـدِهِمْ رَاعُـونَ (8) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَــلَوَاتِهِمْ يُحَــافِظُونَ (9) أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُــونَ (10) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ [المؤمنون: 1 - 11]

انظر كيف أخبر الله تعالى أن أولئـك الـذين اتصـفوا بتلـك السعادة لم ينجوا فقط، وإنما نالوا الفردوس الأعلى.

قال الرجـل: ذلـك صـحيح.. والآيـات الكريمـة صـريحة في ذلك.

قـال الحكيم: فهـل تـراكم أنتم وهـؤلاء الـذين تحـاربونهم تختلفون في تلك المعاني التي وردت بها تلك الآيات؟

سـكت الرجـل، فقـال الحكيم: أنـا أعـرفكم جميعـا، وقـد خـالطتكم جميعـا، ولا أحـد منكم ولا منهم ينكـر معـنى من تلـك المعاني.. فكلهم يؤمنون بالصلاة والزكاة والأمانة..

رمى رجل من القوم سيفه، وقال: صـدقت.. لقـد تـذكرت الآن الكثير من الأحاديث التي كان يجتهد مشـايخ السـوء الـذين ملأوا قلوبنـا بالأحقـاد كي ننسـاها، حيث كـانوا يؤولونهـا تـأويلا عجيبا، فلا نخرج منها بشيء..

ومن تلك الأحاديث قوله ﷺ: (صلوا خلـف من قـال: لا إلـه إلا اللـه، وصـلوا على من قـال: لا إلـه إلا اللـه) [1] وأتـذكر ذلـك اليوم الذي ذهبت فيـه لبعض مشـايخي، وحدثتـه بهـذا الحـديث، وأنا في غاية السرور، لكنه انتهرني.. ثم أخذ يسرد علي فتــاوى العلماء التي تحرم الصلاة وراء جميع المخالفين لنـا، بـل تجعـل صلاتنا خلفهم باطلة [2] .

ومن تلك الفتاوى ما أفتى به بعضهم، قال: (الصـلاة خلـف المبتدع فيها تفصيل، فإذا كـان مبتـدعاً بدعـة مكفـرة كالجهمية؛ فهــذا لا يُصــلى خلفه، والمعــتزلي الــذي يــؤول صــفات اللــه

1) تاريخ بغداد: 6/403

2) انظر تلك الفتاوى في كتابنا [التراث السلفي تحت المجهر] من هذه السلسلة.

والخوارج لا يُصلى خلفهم، أمَّا إذا كانت بدعته خفيفة لا تفضي إلى الشرك فالأمر في هذا سهل، ولكن إذا تيسر إزالته والتماس إمام من أهل السنة؛ فهذا أمر واجب، ولكن إذا دعت الضرورة أن يُصلى خلفه، كالتي بدعته لا تكفره كالعاصي فهذا يصلى خلفه ما دام مسلماً)(1)

ثم بين لي أن هذه الفتوى تستدعي ألا أصلي خلف أحد من الناس سوى أصحابنا، لأن الأمة جميعا أصبحت جهمية.. لأنها جميعا لا تقول بإثبات اليدين والعينين والرجلين والحقو والضرس لله..

رمى آخر بسيفه، وقال: بورك فيكما .. لقد ذكرتماني بحديث أنستنيه الأيام ومشايخ السوء، وهو قوله ﷺ: (رحم الله من كف لسانه عن أهل القبلة إلا بأحسن ما يقدر عليه)(2)، وفي رواية أخرى: (كفوا عن أهل لا إله إلا الله لا تكفروهم بذنب فمن أكفر أهل لا إله إلا الله فهو إلى الكفر أقرب)(3)

فقد وضع رسول الله ﷺ ضابطا واحدا لإدخال المؤمن في الدين، وحماية عرضه من التكفير، وهو قول لا إله إلا الله.. أو هو التوجه للقبلة في الصلاة.. وهي محل اتفاق بين المسلمين جميعا.

رمى آخر بسيفه، وقال: بورك فيكم .. لقد ذكرتموني بحديث خطير لكأنه يحكي واقعنا تماما.. كان مشايخ السوء يكتمونه بكل ما أوتوا من صنوف الحيل.. فإذا ما عجزوا راحوا يحرفونه عن معناه.. وهو ما رواه حذيفة بن اليمان قال: قال رسول الله ﷺ: (إن مما أتخوف عليكم رجل قرأ القرآن ، حتى إذا رؤيت بهجته عليه ، وكان رداؤه الإسلام اعتراه إلى ما شاء الله انسلخ منه ونبذه وراء ظهره وسعى على جاره بالسيف، ورماه بالشرك) ، قال حذيفة: قلت: يا نبي الله أيهما أولى

1) الفتوى للشيخ ابن باز ، انظر: نور على الدرب 364 ب د25.

2) ابن أبي الدنيا في الصمت.

3) رواه الطبرانى.

بالشرك المرمي أو الرامي؟ ، قال : (بل الرامي)[1]

رمى آخــر بسـيفه، وقـال: بـورك فيكم .. لقـد ذكرتمـوني بأحاديث كثـيرة للسـلف الـذين نـدعي انتسـابنا إليهم.. منهـا أن رجلا سأل جابرا: هل كنتم تدعون أحدا من أهل القبلة مشـركا؟ قال: معاذ الله، ففزع لذلك، قال: هـل كنتم تـدعون أحـدا منهم كافرا؟ قال: لا[2].

وعن يزيد الرقاشي أنه قال لأنس بن مالك: يا أبا حمــزة ! إن أناسا يشهدون علينا بالكفر والشرك، قال: أولئك شر الخلق والخليقة[3].

رمى آخــر بسـيفه، وقـال: بـورك فيكم .. لقـد ذكرتمـوني بعمرو بن مرة الجملي، فقد ذكره مسعر بن كـدام، فقـال: (مـا أدركت من النـاس من لـه عقـل كعقـل ابن مـرة، جـاءه رجـل فقال: ـ عافاك اللـه ــ جئت مسترشـداً، إنـني رجـل دخلت في جميع هذه الأهواء فما أدخل في هـوى منهـا إلا القـرآن أدخلـني فيه ولم أخرج من هوى إلا القرآن أخرجني منه حتى بقيت ليس في يدي شيء، فقال له عمرو بن مرة: الله الذي لا إلــه إلا هــو جئت مسترشــداً؟ فقـال: واللـه الـذي لا إلـه إلا هـو لقـد جئت مسترشداً. قال: نعم أرأيت هل اختلفـوا في أن محمـداً رسـول الله وأن ما أتى به من الله حق؟ قال: لا. قال: فهل اختلفوا في القرآن أنه كتاب الله؟ قال: لا. قال: فهل اختلفـوا في دين اللـه أنه الإسلام؟ قال: لا. قال: فهـل اختلفـوا في الكعبـة أنهـا قبلة؟ قال: لا. قال: فهل اختلفوا في الصـلوات أنهـا خمس؟ قـال: لا. قال: فهـل اختلفـوا في رمضـان أنـه شـهرهم الـذي يصـومونه؟ قال: لا. قال: فهل اختلفوا في الحج أنه بيت الله الذي يحجونه؟ قـال: لا. قـال: فهـل اختلفـوا في الزكـاة أنهـا من مـائتي درهم خمسة؟ قال: لا. قال: فهل اختلفوا في الغسل من الجنابـة أنــه

1) رواه بن حبان في صحيحه: 1/ 282. ورواه البخاري في التاريخ الكبير (2907) ، والبزار (2793)، قال ابن كثير: إِسْنَادٌ جَيِّدٌ ، وحسنه الألباني في الصحيحة (3201)

2) رواه أبو يعلى والطبراني في (الكبير).

3) رواه أبو يعلى.

واجب؟ قال: لا. قال مسعر: فذكر هذا وأشباهه، ثم قـرأ: هُـوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ [آل عمران: 7]، فهل تدري ما المحكم؟ قـال: لا، قال: فالمحكم ما اجتمعوا عليه والمتشابه ما اختلفـوا فيـه شـد نيتك في المحكم وإياك والخـوض في المتشـابه. فقـال الرجل: الحمد لله الذي أرشدني على يديك فوالله لقد قمت من عنـدك وإني لحسن الحال. قال: فدعا له وأثنى عليه[1].

رمى آخـر بسـيفه، وقـال: بـورك فيكم .. لقـد ذكرتمـوني بفتـوى للشـوكاني يقـول فيهـا: (اعلم أن الحكم على الرجـل المسلم بخروجـه من دين الإسـلام ودخولـه في الكفـر لا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يُقدم عليه إلا ببرهان أوضـح من شمس النهار، فإنه قد ثبت في الأحاديث الصحيحة المرويـة من طريق جماعة من الصحابة أن (من قال لأخيه: يا كافر. فقد باء بها أحدهما)... ففي هـذه الأحـاديث ومـا ورد موردهـا أعظم زاجر وأكبر واعظ عن التسرع في التكفير)[2]

وبفتوى للباقلاني يقول فيها: (ولا يكفر بقول ولا رأي إلا إذا أجمع المسلمون على أنه لايوجد إلا من كافر، ويقوم دليـل على ذلك، فيكفر)[3]

وبفتـــوى لابن الـــوزير يقـــول فيهـــا: (في الحكم بتكفـــير المختلف في كفرهم مفسدة بينة تخـالف الاحتيـاط.. أن الخطـأ في العفو خير من الخطأ في العقوبة، نعوذ بالله من الخطـأ في الجميع، ونسأله الإصابة والسلامة والتوفيق والهداية)[4]

ويقـول: (وكم بين إخـراج عـوام فـرق الإسـلام أجمعين، وجماهير العلماء المنتسـبين إلى الإسـلام من الملـة الإسـلامية،

---

1) أحسن التقاسيم ص366.

2) السيل الجرار (4/578).

3) فتاوى السبكي (2/578).

4) إيثار الحق على الخلق (405).

وتكثير العدد بهم، وبين إدخالهم في الإسلام ونصرته بهم وتكثير أهـله، وتقوية أمره، فلا يحل الجهد في التفـرق بتكلـف التكفـير لهم بالأدلة المعارَضـة بمـا هـو أقـوى منهـا أو مثلهـا ممـا يجمـع الكلمة، ويقوي الإسلام، ويحقن الـدماء، ويسـكن الـدهماء حـتى يتضح كفر المبتدع اتضاح الصبح الصادق، وتجتمع عليـه الكلمـة، وتحقق إليه الضرورة)[1]

رمى آخـر بسـيفه، وقـال: بـورك فيكم .. لقـد ذكرتمـوني بفتوى للغزالي يقول فيها: (والذي ينبغي أن يميل المحصل إليـه الاحتراز من التكفير ما وجـد إليـه سـبيلاً، فـإن اسـتباحة الـدماء والأموال من المصلين إلى القبلة المصـرحين بقـول: (لا إلـه إلا الله، محمد رسول الله) خطأ، والخطأ في تـرك ألـف كـافر في الحياة أهون من الخطأِ في سفك محجمة من دم مسلم)[2]

ويقـول: (الوصـية: أن تكـف لسـانك عن أهـل القبلـة مـا أمكنك، ما داموا قائلين: (لا إله إلا الله، محمد رسول الله)، غير مناقضين لها.. فإن التكفير فيه خطر، والسكوت لا خطـر فيـه)[3]

رمى آخـر بسـيفه، وقـال: بـورك فيكم .. لقـد ذكرتمـوني بفتـاوى كثـيرة لإخواننـا من الإماميـة يجمعـون فيهـا على عـدم تكفير المسلمين، وبيان حرمتهم، وحرمة دمائهم وأعراضهم.

ومنها فتوى السيّد علي الخامنئي التي يقول فيها: (الفـرق الإسـلامية بأسـرها تعتـبر جـزءاً من الأمـة الإسـلامية، وتتمتـع بالامتيـازات الإسـلامية، وإيجـاد الفرقـة في مـا بين الطوائـف الإسلامية يعد خلافاً لتعاليم القرآن الكريم وسـنة النـبي ﷺ، كما يـؤدي إلى إضـعاف المسـلمين وإعطـاء الذريعة بأيـدي أعـداء الإسلام، ولذلك لا يجوز هذا الأمر قط)

1) إيثار الحق على الخلق (402).

2) الاقتصاد في الاعتقاد (223-224).

3) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة (128).

ومنها فتوى السيد علي السيستاني التي يقـول فيهـا: (كـلّ من يشهد الشهادتين، ولم يظهر منه ما ينافي ذلك، ولم ينصـب العداء لأهل البيت، فهو مسلم)

ومنها فتى السـيّد محمـد سـعيد الحكيم الـتي يقـول فيهـا: (يكفي في انطبـاق عنـوان الإسـلام على الإنسـان الإقـرار بالشهادتين والفـرائض الضـرورية في الـدين، كالصـلاة وغيرهـا، وبـذلك تـترتب عليـه أحكـام الإسـلام من حرمـة المـال والـدم وغيرها)

ومنها فتـوى السـيّد حسـين إسـماعيل الصـدر الـتي يقـول فيهـا: (إنّ المـذاهب واقـع إسـلامي لا بـدّ أن ينظـر إليهـا بكـل احترام وتقدير، ولا بدّ لأتباعها الاقتداء بها؛ وفقاً لقاعدة الإلزام).

ومنها فتوى الشيخ بشير النجفي التي يقول فيها: (كـلّ من يقـرّ بالتوحيـد، ويعتقـد بنبـوة محمـد بن عبـد اللـه، وأنّ رسـالته خاتمة النبوات والرسالات الإلهية، وبالمعاد، ولا يرفض شيئاً مما علم وثبت أنّـه من الإسـلام، فهـو مسـلم، تشـمله الأحكـام الإسـلامية، وهـو محقـون الـدم والعـرض والمـال، ويجب على المسلمين جميعاً الدفاع عنه وعن ماله وعرضه، والله العالم)

وكل هؤلاء مراجـع معتـبرون عنـد إخوانـنا الإماميـة.. وكـل كتبهم تنص على ذلك، وتدعو إليه.

رمى آخـر بسـيفه، وقـال: بـورك فيكم .. لقـد ذكرتمـوني بفتاوى المتنورين من علماء الأمة المعاصرين، من أمثـال شـيخ الأزهر الشيخ محمود شـلتوت الـذي قـال في فتـوى من فتـاواه المهمة التي كان مشايخ السـوء يجتهـدون في الـرد عليهـا: (إنّ الإسلام لا يوجب على أحـد من أتباعـه اتبّـاع مـذهب معين، بـل نقـول: إنّ لكـل مسـلم الحـقّ في أن يقلّـد بـادئ ذي بـدء أي مذهب من المذاهب المنقولة نقلاً صحيحاً والمدوّنة أحكامها في كتبها الخاصّة، ولمن قلّد مذهباً من هذه المذاهب أن ينتقـل إلى غيره ـ أيّ مـذهب كـان ــ، ولا حـرج عليـه في شـيء من ذلـك. فينبغي للمسلمين أن يعرفـوا ذلـك، وأن يتخصـلوا من العصـبية

لمـذاهب معيّنـة، فمـا كـان دين اللـه ومـا كنت شـريعته بتابعـة لمذهب أو مقصورة على مـذهب، فالكـل مجتهـدون ومقبولـون عند الله تعالى، يجـوز لمن هـو أهـلٌ للنظـر والاجتهـاد تقليـدهم والعمل بما يقرّرونه في فقهم، ولا فرق في ذلـك بين العبـادات والمعاملات)

ومنها فتوى الشيخ أحمد كفتارو التي يقول فيهـا: (لا يجـوز تكفير أحـد من أهـل القبلـة مـتى نطـق بالشـهادتين؛ فـإنّ ذلـك يعصم ماله ودمه)

ثالثا ـ التسليم

قام الحكيم الثالث بين الصفين، وقال: أجيبوني يا من لا تزالون تحملون سيوفكم.. هل يمكن أن تقوم العبودية.. وكل القيم الإيمانية والروحانية والإنسانية من غير اتباع رسول الله ﷺ؟

قالوا جميعا بصوت واحد: ذاك مستحيل..

قال أحدهم: يستحيل أن يخطو أحد خطوة واحدة في الطريق المستقيم، وهو يخالف رسول الله ﷺ.

قال آخر: لقد ذكر لله تعالى ذلك، فقال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: 31]

قال آخر: وذكر تعالى ذلك في الآية التي تليها، فقال: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: 32]، فقد قرن طاعة لله بطاعة الرسول ﷺ.. واعتبر التولي عنهما كفرا.

قال آخر: وذكر تعالى ذلك، فقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: 65]، فالله تعالى يقسم في هذه الآية على أن أولئك الذين رغبوا عن التحاكم إلى الرسول، ومن ماثلهم من المنافقين، لا يؤمنون إيمانا حقا إلا إذا كملت لهم ثلاث خصال: أن يحكموا الرسول في القضايا النى يختصمون فيها، ولا يبين لهم فيها وجه الحق.. وألا يجدوا ضيقا وحرجا مما يحكم به، وأن تذعن نفوسهم لقضائه إذعانا تاما دون امتعاض من قبوله والعمل به، لأنه الحق وفيه الخير.. وأن ينقادوا ويسلموا لذلك الحكم، موقنين بصدق الرسول في حكمه، وبعصمته عن الخطأ.

قال الحكيم: شكرا لكم.. فأنتم معي إذن في أنه لا يمكن

لأحد أن يشرب من نهر الحقيقة إلا إذا سقاه منها رسول الله ﷺ..

قالوا: أجل..

قال الحكيم: أجيبوني بعد هذا.. ما وجه علاقة المؤمن مع رسول الله ﷺ.. هل هي علاقة ند بند.. أم علاقة تابع بمتبوع؟

قال رجل من الحاضرين: بل هي علاقة تابع بمتبوع.. فمن ذا يمكنه أن يصل إلى ذلك المقام المحمود والدرجة الرفيعة التي أعطاها لله لنبيه ﷺ؟

قال آخر: إن الرسول ﷺ هو (خاتم الأنبياء.. وهو الإمام الأعظم الذي لو وجد في أي عصر وجد لكان هو الواجب الطاعة المقدم على الأنبياء كلهم؛ ولهذا كان إمامهم ليلة الإسراء لما اجتمعوا ببيت المقدس، وكذلك هو الشفيع في يوم الحشر في إتيان الرب لفصل القضاء، وهو المقام المحمود الذي لا يليق إلا له، والذي يحيد عنه أولو العزم من الأنبياء والمرسلين، حتى تنتهي النوبة إليه، فيكون هو المخصوص به)(1)

قال آخر: لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: 81]، فالله تعالى يخبر في هذه الآية (أنه أخذ ميثاق كل نبي بعثه من لدن آدم، عليه السلام، إلى عيسى، عليه السلام، لمهما آتى الله أحدهم من كتاب وحكمة، وبلغ أي مبلغ، ثم جاءه رسول من بعده، ليؤمنن به ولينصرنه، ولا يمنعه ما هو فيه من العلم والنبوة من اتباع من بعث بعده ونصرته)(2)

---

1) تفسير ابن كثير (2/ 68)

2) تفسير ابن كثير (2/ 67)

قال آخر: وقد ورد في الحديث ما يؤكد ذلك، فقد روي أن بعض الصحابة جاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله إنى مررت بأخ لى من بنى قريظة، فكتب لى جوامع من التوراة. ألا أعرضها عليك؟ فقال: فتغير وجه رسول الله ﷺ، قال عبد الله: فقلت له: ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ؟ فقال: رضينا بالله ربا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولاً. قال: فسرى عن النبى ﷺ، ثم قال: (والذى نفس محمد بيده، لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتمونى لضللتم، أنتم حظى من الأمم، وأنا حظكم من النبيين)(1)

قال آخر: وورد في حديث آخر: (لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء، فإنهم لن يهدوكم وقد ضلوا، وإنكم إما أن تصدقوا بباطل، وإما أن تكذبوا بحق، وإنه والله، لو كان موسى حيا بين أظهركم ما حل له إلا أن يتبعني)(2)

قال الحكيم: فأنتم متفقون على هذا إذن؟

سكتوا جميعا، فقال: أجيبوني بعد هذا.. ما تقولون في شخص يقر بأن محمدا ﷺ رسوله ونبيه.. ولكنه في نفس الوقت يزعم أن لله تعالى أعطاه من الصلاحيات ما لم يعط رسوله؟

نهض أحدهم، وشهر سيفه، وقال: دلني عليه.. فوالله لأطعننه بسيفي هذا؟

قال الحكيم: هل توافقونه على هذا؟

قالوا جميعا: أجل.. فليس لمثل هذا إلا القتل.

قال الحكيم: ألا يدعوكم هذا إلى البحث في صلاحيات ووظائف رسول الله ﷺ حتى لا تتجاوزونها؟

قالوا جميعا: بلى.. ونحن نفعل ذلك.

---

1) روه أحمد: 4/265.

2) أحمد 3/338.

قال الحكيم: أرجو أن تكون الدعاوى مطابقة للأفعال.. هلم بنا نبحث فيما نص عليه القرآن الكريم من وظائف رسول الله ﷺ لنرى هل أنتم ونحن نتبعه فيها.. أم أننا نضيف لأنفسنا من الوظائف ما لم يضفه لله لببيه ﷺ؟

قال أحدهم: كلامك صحيح.. ولكن هناك شيء ربما غاب عنك.. أو تعمدت إخفاءه.. وهوأن ذكر بعض الوظائف لا يعني التحديد أو التقييد.. فإذا وصفت شخصا ما بكونه معلما لا يعني هذا كونه معلما فقط.

قال الحكيم: صدقت.. ولهذا أحتاج إلى دليلين: الأول: هو بيان وظائف رسول لله ﷺ التي نص عليها القرآن الكيم.. وبيان الوظائف التي لم يكلف بها رسول لله.. فهل ترون هذا كافيا؟

قالوا: بلى..

قال الحكيم: إذن.. هيا ضعوا سيوفكم.. وافتحوا مصاحفكم، وانظروا فيما أقرؤه عليكم من القرآن لتروا وظائف رسول الله ﷺ، وتستنوا به في اتباعها.

قال رجل منهم: مصاحفنا في صدورنا.. أما سيوفنا فلن نضعها حتى نغمدها في صدور أعداء الله ورسوله.

قال الحكيم: ما دمتم تحفظون القرآن، فأجيبوني.. هل هناك آيات من القرآن الكريم تحدد وظائف رسول الله ﷺ وإخوانه من الرسل؟

قال رجل منهم: الآيات في ذلك كثيرة، ولي بحث مفصل فيها، ومنهاقوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 151]، وقد أكد ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ [الجمعة: 2]

قال الحكيم: فما الوظائف الني تنص عليها هاتين الآيتين

الكريمتين؟

قال الرجل: أولها التزكية.. وهي تطهير نفـوس النـاس من كل الانحرفات العقديـة والسـلوكية.. وتظهـير المجتمـع من كـل الموبقا ت والرذائل..

قال آخر: وثانيهـا تعليم الكتـاب والحكمـة، ليـدركوا حقـائق الأمور.. ويسيروا وفق ما تقتضيه..

قال الحكيم: فهل مارس رسول الله ﷺ هذه الوظائف؟

قال رجل من القوم: أجل.. وكيف لم يمارسها، وقد سـخر حياته كلها لتحقيقهـا.. وقـد ورد في الحـديث عن جعفـر بن أبي طالب لما سأله نجاشي الحبشة عن دعوته ﷺ: (أيها الملك كنـا قوما أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفـواحش، ونقطع الأرحام، ونسئ الجوار، ويأكل القوي منا الضـعيف، وكنـا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسـولا منـا رسـولا نعـرف نسـبه، وصـدقه، وأمانتـه، وعفافـه، فـدعانا إلى اللـه لنوحـده ونعبـده، ونخلع ما كان يعبده آباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانـة، وصـلة الأرحـام، وحسـن الجـوار، والكـف عن المحـارم، والـدماء، ونهانـا عن الفـواحش، وقـول الـزور، وأكـل مـال اليـتيم، وقـذف المحصـنة وأن نعبـد اللـه لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام)[1]

قال الحكيم: فهل حمل رسول اللـه ﷺ سـوطا أو عصـا أو سيفا ليلزم الناس بما أمره الله به؟

قال رجـل من القـوم: كلا.. فرسـول للـه ﷺ أعظم من أن يفعل ذلك..

قال الحكيم: فهل كـان لـه أن يفعـل ذلـك، وتركـه.. أم أن الله نهاه عن ذلك؟

قال زجل من القوم: إن شئت الصدق.. فإن الله تعالى هو الذي نهاه عن ذلك.. وأخبره أنه ليس عليه إلا البلاغ.

1) أحمد 1/201 (1740).

قال الحكيم: وقد ورد ذلك في مواضع كثيرة من القرآن الكريم مكيه ومدنيه حتى لا يزعم أحد أنه من الآيات المنسوخة.. قال تعالى: فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ [آل عمران: 20]

وقال تعالى في سور المائدة، وهي من أواخر ما نزل من القرآن الكريم، وقدكان للسلمين قوة وشوكة: وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ [المائدة: 92]

وقبل ذلك قال تعالى في سور النحل المكية: فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ [النحل: 82]

رمى رجل من القوم سيفه، وقال: صدقت.. وقد قال تعالى في سورة الرعد يحدد وظيفة الرسول ﷺ بدقة: وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ [الرعد: 40]

إن هذه الآية الكريمة كافية في الدعوة إلى رفع الوصاية على الخلق في مسائل الإيمان والعبادة.. فالله تعالى أخبر أشرف خلقه وأكرمهم عليه أنه ليس عليه إلا البلاغ.. أما الحساب، فيتولاه الله تعالى.

لكنا نحن.. ولتعدينا حدودنا.. خالفنا أوامر الله فادعينا أننا نبلغ ونحاسب ونعاقب ونعذب ونذبح ونفعل كل الموبقات..

لقد نفخ فينا المشايخ الذين ابتعدوا عن هدي القرآن الكريم هذا المعنى حين كانوا يرددون بيننا كل حين فتاوى القتل والذبح التي مارسها الطغاة باسم الإسلام..

أذكر جيدا أن بعضهم حكى لنا ما فعله الظالم المستبد خالد القسري الذي كان واليا علي العراق لهشام بن عبدالملك، الذي ذبح الجعد بن درهم بعد أن خرج به إلي مصلي العيد

بوثاقه ثم خطب الناس وقال: (أيها الناس! ضحوا، تقبل الله ضحاياكم، فإني مضح بالجعد بن درهم، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا، ولم يكلم موسي تكليما)(1)، ثم نزل وذبحه.

ثم أثنى على سلوكه هذا فقال معقبا على ثناء ابن تيمية عليه: (جزاه الله خيرا، فالناس يضحون بالغنم والشاة والمعز والبعير والبقر.. وهذا ضحي بشر منها، فإنه شر من الإبل والغنم والحمير والخنازير، لأن الله يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة: 6]، ويقول: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: 44]، وإني أسأل الآن: البعير عن سبع، والبقر عن سبع، وهذا الرجل عن كم.. عن آلاف آلاف وقي الله شرا كبيرا، لكن بعض الناس _ والعياذ بالله_ يقولون إن هذا العمل من خالد بن عبد الله القسري ليس دينا، ولكنه سياسي، ونقول لهم هذا كذب، لأن الرجل صرح أمام الناس أنه قتله من أجل هذه البدعة)(2)

رمى آخر سيفه، وقال: صدقت يا أخي، وأعتذر لكل من رفعت سيفي في وجوههم.. لقد سمعت لتوي قوله تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (21) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (22) إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ (23) فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ (24) إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (25) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (26) ﴾ [الغاشية: 21-26]، فالله تعالى في هذه الآيات الكريمة يحدد وظائف رسول لله ﷺ بدقة.. وأن أمر عباد الله بيد الله، لا بيد أحد من خلقه.

رمى آخر سيفه، وقال: أليس هذا هو الشرك الذي كانوا يحذروننا منه كل حين.. إنهم يريدون منا أن نتولى أمرا هو لله، وليس لنا.. فالهداية من الله، والجزاء لله، قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: 56]، فالله تعالى يقول لرسوله ﷺ في هذه الآية: (إنك لا تستطيع هداية من أحببت أنت هدايته، وليس

1) البخاري في (خلق أفعال العباد) ص 69.

2) هذا الكلام للشيخ محمد بن صالح العثيمين في شرح العقيدة الواسطية.

ذلك إليك، وإنما أنت رسول عليك البلاغ، والله يهدي من يشاء، والله أعلم بمن اهتدى، وبمن ضل سواء السبيل).. لكنا نحن تصورنا أننا بسيوفنا ورماحنا نستطيع أن نغرس الهداية في قلوب الناس.

رمى آخر سيفه، وقال: بورك فيك أيها الحكيم.. وبورك فيكم جميعا.. لقد ذكرتموني بآيات كثيرة يخبرنا الله تعالى فيها أنه وحده من يحكم بين عباده فيما اختلفوا فيه، وأن ذلك مؤجل إلى الآخر.. كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [البقرة: 113]

رابعا ـ التقوى

قام الحكيم الرابع بين الصفين، وقال: لقد حدثكم أصحابي عن العبودية والإسلام والتسليم.. وأنـا سـأحدثكم عن قيمـة من القيم العظيمــة الــتي لا يمكن تــذوق الإيمــان، ولا تحققــه من دونها.. لا شك أنكم تعرفونها.. إنها تلك التي علـق اللـه الانتفـاع بالقرآن الكريم، والفوز بهدايته عليها.

قال رجل من القوم: لا شك أنك تقصد التقوى، فهي الــتي قـال اللـه تعـالى في شـأنها: ﴿ ذَلِـكَ الْكِتَـابُ لاَ رَيْبَ فِيـهِ هُـدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة:1]

قال الحكيم: أجـل.. وقـد ربـط اللـه تعـالى معيتـه بأهلهـا، فقال: ﴿وَاتَّقُواْ الله وَاعْلَمُواْ أَنَّ الله مَعَ الْـمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة:194] وقال: ﴿إِنَّ الله مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل: 128]..

وهي التي أعد اللـه المكانـة الرفيعـة لأهلهـا، فقـال: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَـرُواْ الْــحَيَاةُ الـدُّنْيَا وَيَسْـخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُـواْ وَالَّذِينَ اتَّقَواْ فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالله يَـرْزُقُ مَن يَشَـاءُ بِغَيْـرِ حِسَـابٍ ﴾ [البقرة:212]، قال: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَـوْا عِنـدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْـرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ﴾ [آل عمران:15]، وقال: ﴿تِلْكَ الْـجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴾ [مريم:63]..

وهي الــتي وعــد اللــه أهلهــا بــأن يكشــف لهم من أنــوار الحقائق ما يزيل به عن عيونهم عمش الضلالة، فقـال: ﴿وَاتَّقُـواْ الله وَيُعَلِّمُكُمُ الله وَالله بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة:282]

قـام رجـل من القـوم، وقـال: أراك تريـد أن تخطب علينـا خطبة عن التقوى.. فوفر عن نفسك عنـاء ذلـك.. فنحن نحفـظ كل ما ورد حولها في القرآن الكريم والسـنة المطهـرة.. ونضـم إلى ذلـك مـا قالـه أعلامنـا الأعلام ممن لم تسـمع بـه أنت ولا أمثالك.

فنحن نعلم أن الجنة تسعى وتتقرب للمتقين، كما قال تعالى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء:90]، وقال: ﴿ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ [ق:31]

ونعلم أن المتقين لهم في الجنة غرف مبنية من فوقها غرف، يُرى ظاهِرها من باطنها وباطنها من ظاهرها، كما وعد الله تعالى بذلك، فقال: ﴿لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ الله لا يُخْلِفُ الله الْمِيعَادَ ﴾ [الزمر:20] وقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴾ [العنكبوت:58]

ونعلم أن المتقين لا يمسّهم العذاب، قال تعالى: ﴿وَيُنَجِّي الله الَّذِينَ اتَّقَوا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمُ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [الزمر:61]

ونعلم فوق ذلك كله أن أشرف جائزة ينالها المتقون هي محبة الله لهم، كما قال تعالى: ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ الله يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران:76]

قال الحكيم: بورك فيك.. وفي حفظك للقرآن الكريم، وفهمك له.. فهلم أجبني عن حقيقة التقوى.. وكيف نسير بها في حياتنا لننال كل تلك الأجور المعدة لأهلها؟

قال الرجل: ذلك من أوضح الواضحات.. فقد بين رسول الله ﷺ حقيقة التقوى، ومنهج التحقق بها، فقال: (إن الحلال بين، وإن الحرام بين، وبينها أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات، استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه، ألا ولكل ملك حمى، إلا وإن حمى الله محارمه، ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)(1)

فهذا الحديث الشريف يبين حقيقة التقوى، وهي توقي

1) رواه البخاري ومسلم.

الحرام والشبهات وكل ما يؤدي إليهما.. ويبين أن التحقق بـذلك كله متوقف على صلاح القلب.

قال الحكيم: بورك فيك.. وفي فهمك عن نبيـك.. فحـدثني عن كيفية تحقيق ذلك في الواقـع.. وهـل يمكننـا أن نقـدم على أمر دون أن نعلم حكم الله فيه؟

قال الرجـل: تلـك هي الضـلالة بعينهـا، فـالتقوى تسـتدعي تقديم اللـه ورسـوله.. وألا نفعـل شـيئا قبـل أن نعلم حكم اللـه فيه.. كما قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَـدَيِ اللَّهِ وَرَسُــولِهِ وَاتَّقُــوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَــمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الحجــرات: 1]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُـولُهُ أَمْـرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَـرَةُ مِنْ أَمْـرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ فَقَـدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب: 36]

قال الحكيم: فهيا بنا نطبـق ذلـك على مـا أنتم فيـه.. فهـل ترون أن التقوى تدعوكم لقتل بعضكم بعضا؟

قام رجل، وسل سيفه، وهو يقول: أجل.. فلولا التقـوى مـا خرجنا من ديارنا، فقد سـمعنا أن هـؤلاء حرفـوا ديننـا، وابتـدعوا فيـه بـدعا عظيمـة.. ونحن مـا خرجنـا إلا لقتـالهم لنقتـل معهم بدعهم وضلالاتهم.

قال الحكيم: فهل عرضتم هذا على اللـه ورسـوله قبـل أن تقدموا عليه؟

قال الرجل: أجل.. لقد عرضناه.. وقد أخبرنـا رسـول اللــه ﷺ أن كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

قال الحكيم: لكن هذا الحديث يتوعد صاحب البدعة بالنار.. ولم يتوعده بالقتل.. فكيف تريد أن تجمع له العقوبتين؟

سكت الرجل، فقال الحكيم: أخبروني عن رسـول اللــه ﷺ هل قتل المبتدعة الذين عاشوا في زمانه.

قـال الرجـل: لم يكن في عهـد رسـول اللـه ﷺ مبتدعـة..

ولذلك ترك الحكم في حقهم للاجتهاد.. وقد نص علماؤنا الثقــاة على قتـل المبتدعـة، بـل دعونـا إلى جـز رؤوسـهم ورميهـا في المزابل.

قال الحكيم: ألم يكن في عهد رسول الله ﷺ منافقين؟

قال الرجـل: بلى.. لقـد كـان هنـاك منـافقون، وقـد حـدثنا القرآن الكريم عن أخبارهم.

قال الحكيم: فهل كان هؤلاء المنافقون معـروفين لرسـول الله ﷺ، أم كانوا متسترين مجهولين؟

قـال الرجـل: بـل كـانوا معـروفين.. وكـان أكـثرهم يجهـر بنفاقـه، ولا يسـر بـه كمـا قـال تعـالى: ﴿وَإِذَا قِيـلَ لَهُمْ تَعَـالَوْا يَسْـتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُـولُ اللَّهِ لَـوَّوْا رُءُوسَـهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُـدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (5) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْـتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْـتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِــرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْــدِي الْقَــوْمَ الْفَاسِــقِينَ (6) هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُـوا عَلَى مَنْ عِنْـدَ رَسُـولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّـوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَـافِقِينَ لَا يَفْقَهُـونَ (7) يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَـةِ لَيُخْـرِجَنَّ الْأَعَـزُّ مِنْهَـا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِــزَّةُ وَلِرَسُــولِهِ وَلِلْمُــؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَــافِقِينَ لَا يَعْلَمُــونَ ﴾ [المنافقون: 5 - 8]

قال الحكيم: فماذا فعل رسول الله ﷺ مـع من جهـر بهـذا، وراح يثير بين المسلمين الفتنة بسببه.. هل استتابهم، أو قتلهم؟

سكت الرجل، فقال الحكيم: ألم تكن أقـوالهم تلـك أخطـر من كل بدعة وضلالة وقع فيها من تحاربونهم؟

قال الرجل: لا.. هؤلاء أشد خطرا.

قـال الحكيم: فهم إذن سـينزلون يـوم القيامـة أسـفل من درك المنافقين.

قال الرجل: ويلك.. أتريد أن تكذب كتاب اللـه.. لقـد أخـبر الله تعالى أن درك المنافقين هو أسفل الـدركات.. وليس دونـه

أي درك آخر.. قال تعـالى: ﴿إِنَّ الْمُنَـافِقِينَ فِي الـدَّرْكِ الْأَسْـفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾ [النساء: 145]

قال الحكيم: بورك فيـك.. لكـني تمـنيت لـو قـرأت الآيـات التي تليها.. أم أنك لا تحفظها؟

قــال الرجــل: بلى أحفظهــا عن ظهــر قلب، وبــالقراءات العشر.. فقد قال تعالى بعد تلك الآية: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْـلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 146]

قال الحكيم: فهل كان رسول الله ﷺ بعـد أن نـزلت عليـه هذه الآيات يجمعهم ليستتيبهم.. أم يترك ذلك لهم؟

قال الرجل: ما حفظ عن رسول الله ﷺ أنه اسـتتاب أحـدا من المنافقين..

قال الحكيم: وهل يمكن لشخص أن يتـوب تحت الضـغط.. إنه سيمارس نفاقا جديدا يغطي به النفاق القديم؟

رمى بعض القوم سيفه، وقـال: بـورك فيـك أيهـا الحكيم.. لقد تذكرت لتوي ما رواه ابن هشام فى تأريخـه لغـزوة (أحـد)، فقـد ذكـر أن جيش المسـلمين اجتـاز حديقـة لأحـد المنـافقين، وكان أعمى، فقام يحثى الـتراب فى وجـوه المسـلمين، ويقـول للنـبى ﷺ: (إن كنت رسـول اللـه فـإنى لا أحـل لـك أن تـدخل حائطى (أى بسـتانى)، وأخـذ حفنـة من تـراب فى يـده، وقـال: (والله لو أعلم أنى لا أصـيب بهـا غـيرك يـا محمـد لضـربت بهـا وجهك)، فابتدره القوم، فقال لهم النبى ﷺ: لا تقتلـوه.. ويشـهد الله أن الذين نحاربهم مـا قـالوا مثـل هـذا، ولا دونـه.. بـل إنهم يعظمون رسول الله ﷺ ويجلونه ويفدونه بـأرواحهم وأنفسـهم.. فكيـف تجرأنـا على سـل سـيوفنا عليهم، ورسـول اللـه ﷺعن سلف السيف على من سبه وآذاه.. أفنحن أتقى لله من رسـول الله ﷺ؟

رمى آخـر سـيفه، وقـال: بـورك فيـك أيهـا الحكيم.. لقـد

تذكرت لتوي كيف تعامل رسول الله ﷺ مع عبد الله بن أبى بن أبى سلول زعيم المنافقين، مع أنه قال تهديدا لرسول اللـه ﷺ: (أمـا واللـه إن رجعنـا إلى المدينـة ليخـرجن الأعـز منهـا الأذل)، وقال غير ذلك كثير.. لكن النبي ﷺ لم يقتلـه.. ولم يعاقبـه.. بـل كان يقول مخاطبـا من يريـد قتلـه: (كيـف إذا تحـدث النـاس أن محمداً يقتل أصحابه؟)

وفوق ذلـك كلـه، ورغم تاريخـه الطويـل في النفـاق إلا أن رسول الله ﷺ كان يـزوره كـل حين في مـرض موتـه رجـاء أن يسلم.. وقد روي أنه دخل عليه، فقال لـه: (قَـدْ نَهَيْتُـكَ عَنْ حُبِّ يَهُـودَ)، فقـال عبـد اللـه بن أُبي معانـدا إلى آخـر لحظـة: (قـد أبغضهم أسعد بن زرارة، فما نفعه؟)

بـل إنـه ﷺ عنـدما مـات صـلى عليـه، وكـان يصـلي على المنافقين حتى نزل قوله تعالى ينهاه عن ذلك: ﴿وَلاَ تُصَـلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلاَ تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة: 84]

وقد قـال ﷺ لمن طلب منـه عـدم الصـلاة عليـه: (إنى قـد خُيرت فاخترت، قد قيل لى: اسـتغفر لهم أو لا تسـتغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم. فلو أعلم أنى زدت على السبعين غفر له لزدت، ثم صـلى عليـه النـبى ومشـى فى جنازته حتى قام على قبره، فنزل قوله تعـالى: ﴿وَلاَ تُصَـلّ عَلَىَ أَحَدٍ مّنْهُم مّاتَ أَبَداً وَلاَ تَقُمْ عَلَىَ قَبْرِهِ﴾..فمـا صـلى بعـدها على منافق.

رمى آخـر سـيفه، وقـال: بـورك فيـك أيهـا الحكيم.. لقـد تذكرت لتوي ما رواه ابن هشام من أن بعض المنافقين اسـتهزأ بالرسول ﷺ حين خرج بالجيش لمواجهة الروم فى غزوة تبـوك وتوقعوا أن يأسر الروم الرسول والمسـلمين وعـرف النـبى ﷺ بمقالتهم، فجاءوا إليه يعتـذرون، ويقولـون: يـا رسـول اللـه كنـا نخوض ونلعب، فنزل قوله تعـالى: ﴿وَلَئِنْ سَـأَلْتَهُمْ لَيَقُـولُنَّ إِنَّمَـا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُـلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِـهِ وَرَسُـولِهِ كُنْتُمْ تَسْـتَهْزِئُونَ ﴾ [التوبة: 65]، ولم يتعرض لهم النبى ﷺ.

رمى آخـر سـيفه، وقـال: بـورك فيـك أيهـا الحكيم.. لقـد تذكرت لتوي ما رواه المؤلفون في أسباب النزول من أن نفــرا من المنافقين اجتمعوا، وأخذوا يسـبون النـبى ﷺ وعنـدهم غلام من الأنصار اسـمه عـامر بن قيس، فقـالوا: لئن كـان مـا يقـول محمد حقاً لنحن أشر من الحمير، فأتى عامر للنـبى ﷺ فـأخبره فاستدعاهم وسألهم فحلفوا له أن عـامراً كـاذب، وحلـف عـامر أنهم كاذبون وقال: (اللهم لا تفرق بيننا حتى تبين صدق الصادق من كـذب الكـاذب)، فـنزل قولـه تعـالى: ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُـؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُـونَ هُـوَ أُذُنٌ قُـلْ أُذُنُ خَيْـرٍ لَكُمْ يُـؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُـؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُـوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُـؤْذُونَ رَسُـولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: 61]، ومع ذلـك.. ومـع عظم مقـولتهم إلا أنـه لم يفعـل لهم شـيئا.. بـل تـركهم بين قـومهم يسـرحون ويمرحون.

رمى آخـر سـيفه، وقـال: بـورك فيـك أيهـا الحكيم.. لقـد تذكرت لتوي ما روي أنه خرج بعض المنـافقين مـع الرسـول ﷺ إلى غـزوة تبـوك فكـانوا إذا خلـوا إلى بعضـهم سـبوا الرسـول وطعنوا فى الدين، فنقل ما قاله حذيفـة إلى الرسـول ﷺ فقـال لهم النبى ﷺ: ما هذا الذى بلغنى عنكم؟ فحلفوا ما قالوا شـيئاً.. فنزل قوله تعـالى: ﴿يَحْلِفُـونَ بِاللَّهِ مَـا قَـالُوا وَلَقَـدْ قَـالُوا كَلِمَـةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا وَمَا نَقَمُـوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُـولُهُ مِنْ فَضْـلِهِ فَـإِنْ يَتُوبُـوا يَـكُ خَيْـرًا لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَـذَابًا أَلِيمًـا فِي الـدُّنْيَا وَالْآخِـرَةِ وَمَـا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ [التوبة: 74]

بـل روى النيسـابورى في قولـه تعـالى: ﴿وَهَمّـواْ بِمَـا لَمْ يَنَالُواْ﴾ أن بعضهم تآمر على قتـل النـبى ﷺ ليلـة العقبـة.. ومـع ذلك كله لم يفعل لهم شيئا.

رمى آخـر سـيفه، وقـال: بـورك فيـك أيهـا الحكيم.. لقـد تذكرت لتوي ما رواه النيسـابورى من روايـات فى سـبب نـزول قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْـتَ مُؤْمِنًـا تَبْتَغُـونَ عَـرَضَ

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا [النساء: 94]، ومنها أنها نزلت فى معركة انهزم فيها المشركون، وهرب منهم رجل فتبعه رجل من المسلمين، فلما غشيه بالسلاح قال الهارب: إنى مسلم إنى مسلم، فكذبه وقتله وأخذ متاعه فقال له النبى ﷺ: قتلته بعد ما زعم أنه مسلم، فقال: يا رسول الله إنما قالها متعوذاً من القتل، فقال له الرسول: (فهلا شققت عن قلبه، فتنظر أصادق هو أم كاذب؟!)(1)

رمى آخر بسيفه، وقال: بورك فيكم .. لقد ذكرتموني بحدث عظيم لرسول الله ﷺ لا أراه منطبقا على أحد من الناس كانطباقه علينا.. لقد قال رسول الله ﷺ: (إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار)(2)

ثم أخذ يبكي بشدة، ويقول: ويلي.. ويل نفسي.. ماذا فعلت بها.. إن كان هذا الرجل الذي ذكره رسول الله ﷺ قد شتم شخصا واحدا.. أو أشخاصا معدودين، فأنا شتمت ملايير الأشخاص.. وإن كان قد سفك دم واحد.. فأنا كنت أفتي بسفك دم ملايير البشر.. ويلي ماذا أفعل لهم.. وما هي الحسنات التي تكفيهم إن خاصموني عند ربهم.. وويل لي من سيئاتهم إن صبت علي.

رمى آخر بسيفه، وقال: بورك فيكم .. لقد ذكرتموني بحديث خطير لرسول الله ﷺ يقول فيه مخاطبا أصحابه:: (أتدرون ما الغيبة؟) قالوا: اللّه ورسوله أعلم. قال: (ذكرك أخاك بما يكره) قيل: أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال:

---

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه البخاري ومسلم.

(إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبته. وإن لم يكن فيه فقد بهتّه) (3)

وأنا وأصحابي لم نقع في الغيبة فقط، بل كنا نمارس البهتان وشهادة الزور بكل ألوانها.. لقد كان مشايخ السوء يلقنوننا كل حين جواز الكذب على المخالفين لتفير الناس عنهم.. وقد قال لنا بعضهم: مما اتفق عليه جميع أعلامنا الكبار، وأصدروا فيه الفتاوى الكثيرة، جواز استعمال جميع ألوان الحيل والخدعة مع المخالفين، ذلك أن الحرب خدعة.. وقد جرى على هذا المنهج كبار علمائنا كشيخ الإسلام ابن تيمية الذي استعمل هذا مع جميع المبتدعة المخالفين، حتى أنه كان يضعف الحديث الصحيح إذا رأى المبتدعة يستعملونه لحرب السنة..

وأذكر أنني كنت ذات يوم مع بعض مشايخنا، وكان اسمه الشيخ علي الخضير، وقد سألته هذا السؤال: (هل يجوز لي أن أقول سوءاً عن شخص مما هو وأمثاله فيه وأنا أعرف أنه فاسق أو عدو للدين؟ وهل يجوز لي أن أقول خيراً عن رجل صالح من أهل الدين والتقوى والجهاد لتخليصه من مشكلة تضره بذاته أو بسمعة الصحوة الإسلامية؟)

فأجابني الشيخ بقوله: (المؤمن أخو المؤمن، ولابد أن ينصره حال طلب النجدة أو عند العلم بحاجته، ومن النصرة مؤازرته ودفع الضرر عنه. ومن ذلك الكذب؛ فالكذب يجوز لنصرة المسلم ولدفع الكافر أو العدو. فقد صح فى الحديث جواز الكذب لتحقيق مصلحة ومن المصلحة رفعة المسلم وذلة سواه.. كما تجوز المخادعة للعدو في حال الحرب أو لأجل الحرب فهذا لا خلاف في جوازه، وذلك لحديث الصحيحين، قال النبي ﷺ: (الحرب خدعة).. ومعنى المخادعة في الحرب إظهار المكيدة، وحسن التدبير والرأي والتعريض ليظهر للعدو خلاف ما يعده له المسلمون من الكمائن والمكائد.. والخداع هو عمدة الحروب وأساسها وعليه يكون مدار الانتصار، وهو أحد الأسباب الشرعية التي ينبغي الأخذ والاعتناء بها.. ومفهوم الحرب في

---

3) رواه مسلم.

هـذه الأحـاديث أعم من أن يقصـر على نصـب القتـال والتقـاء الصفين وتقابل الـزحفين، وإنمـا يـدخل في ذلـك أيضـا السـعي للفتـك بـرأس من رؤوس الكفـر والإلحـاد والعلمنـة والفسـق المحادين لله ورسوله.. ومن الحرب حـرب الأفكـار، وهي أشـد من حرب القتال، فيجب اسـتخدام الخدعـة ويبـاح الكـذب فيهـا لإظهار أهل البدع والشركيات وأهل الفرق الباطلـة من روافض وزنـادق وأهـل علمنـة وحداثـة وقرامطـة وغـيرهم بمظهـرهم المخزي لكي لايغتر بهم عوام المسـلمين؛ وإظهـار أهـل السـنة وأصحاب العقيدة السـليمة بمظهـرهم اللائـق بهم.. ولهـذا فإنـه يجــوز لــك الكــذب والشــهادة وتغليــظ اليمين لنصــرة الــدين الإسـلامي ونهجـه القـويم ونصـرة أخيـك المسـلم الصـالح ممن يريدون به كيداً؛ وإذلال أهل البدع والضلالات والفرق الفاســدة) (1)

بعد أن سمعت الفتوى، ودهشت لما فيها، قلت: هذه فتوى خطيرة.. فقال لي يطمئنني: هكـذا لقننـا جميـع مشـايخنا، وقـد كان من مشايخي رجل يقال الفـوازان، وقـد سـألته حينهـا هـذا السؤال: (انتشر اليوم بين الشباب أنه يلزم الموازنـة في النقـد فيقولون: إذا انتقدت فلانا من الناس في بدعتـه وبينت أخطـاءه يلزمك أن تـذكر محاسـنه، وهـذا من بـاب الانصـاف والموازنـة، فهل هذا المنهج في النقد صحيح؟ وهل يلزمني ذكـر المحاســن في حالة النقد؟)

فأجابني بقوله: (إذا كان المنتقد من أهل السنة والجماعــة وأخطـاؤه في الامـور الـتي لاتخـل بالعقيـدة، فنعم، هـذا تـذكر ميزاته وحسـناته، تُغمـر زلاّتـه في نصـرته للسـنة. أمـا إذا كـان المنتقد من أهل الضلال ومن أهل الانحراف ومن أهـل المبـادئ الهدامة والمشبوهة، فهذا لايجوز لنا أن نذكر حسـناته - اذا كـان له حسنات - لأننا إذا ذكرناها فإن هـذا يغـرر بالنـاس فيحسـنون الظن بهذا الضال أو هـذا المبتـدع أو هـذا الخـرافي أو الحـزبي، فيقبلـون أفكـار هـذا الضـال أو هـذا المبتـدع أو ذاك المتحـزب.

---

1) نقلا عن مقال بعنـوان: مـتى يخلـع شـيوخ السـعودية سـراويلهم الغربيـة - شـبكة المنطقة.

والله جل وعلا ردّ على الكفرة والمجرمين والمنافقين ولم يذكر شيئا من حسناتهم، وكذلك أئمة السلف يردون على الجهمية والمعتزلة وعلى أهل الضلال ولايذكرون شيئا من حسناتهم. لأن حسناتهم مرجوحة بالضلال والكفر والالحاد والنفاق. فلا يناسب انك ترد على ضال، مبتدع، منحرف، وتذكر حسناته وتقول هو رجل طيب عنده حسنات وعنده كذا، لكنه غلط.. نقول لك: ثناؤك عليه أشد من ضلاله، لأن الناس يثقون بثنائك عليه، فإذا روجت لهذا الضال المبتدع ومدحته فقد غررت بالناس وهذا فتح باب لقبول أفكار المضللين)(1)

وانطلاقا من تلك الفتاوى كنت أكذب على طوائف الأمة خلاف طائفتي وأرميهم بالطامات.. ولم أكن أنال على ذلك الكذب والتزوير إلا التشريف والقدير.. فمشايخ السوء لا يحبون ولا يقدرون إلا المزورين والكاذبين.

1) الأجوبة المفيدة في أسئلة المناهج الجديدة، 1/ 24.

خامسا ـ العدل

قام الحكيم الخامس بين الصفين، وقال: أجيبوني يا من لا تزالون تحملون سيوفكم.. أليس العدل من الأسس التي يقوم عليها هذا الدين؟

قال أحدهم: بلى.. وهل في ذلك شك؟.. فقد أمرنا الله تعالى بالعدل، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل:90]

قال آخر: بل إن الله تعالى أمرنا ألا نراعي في تحقيق العدالة أحدا مهما كان، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: 135]

قال آخر: بل إن الله تعالى اعتبر العدل من وظائف رسول الله ﷺ، وأنه واجب عليه العمل به، مثلما هو واجب علينا، قال تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى:15]

قال آخر: وقد اعتبر الله تعالى العدل من القيم الكبرى التي يفرق بها بين السائرين على الصراط المستقيم وغيرهم من الضالين والمنحرفين عنه، فقال: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْهُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: 76]

قال الحكيم: بورك في حفظكم للقرآن الكريم.. فأخبروني بعد هذا.. ألم يكن ما فعلته قريش من حرب النبي ﷺ وأصحابه

وإخراجهم من ديارهم ظلما وجورا؟

قال رجل من القوم: وهل في ذلك شك؟.. لقد مارست قريش كل أنواع الأذى والظلم والجور مع النبي ﷺ وأصحابه.. وقد أخبر الله تعالى عن ذلك، فقال: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (39) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ ﴾ [الحج: 39، 40]

قال الحكيم: أخبروني بعد هذا.. ألم تكن قريش تعتقد أنها على الدين الحق.. وأن دينها هو دين إبراهيم عليه السلام.. وأن رسول الله ﷺ هو الذين انحرف عنهم؟

قالوا: بلى.. ذلك صحيح.. ولكن ذلك لم يكن يغني عنها شيئا.. فهي على الدين الباطل.. وليس على الدين الحق.. أم أنك تريد أن تقنعنا أنها على الدين الحق؟

قال الحكيم: معاذ الله أن أقول ذلك.. فأنا مسلم مثلكم.. ولكني باحث عن العدل.. وأتساءل بيني وبين نفسي: إذا كانت قريش تؤمن بدين، وتقتنع به اقتناعا تاما، ثم رأت أن من بينها من خرج عن هذا الدين وارتد عنه.. ألا يحق لها، وهي تدعي أنها على ملة إبراهيم عليه السلام، أن تقيم عليه حكم الردة الذي يقيمه بعضكم على بعض؟

سل الكثير من الرجال سيوفهم غاضبين، وقالوا: ما تقول؟

قال الحكيم: اسمعوني جيدا.. لقد أخبر الله تعالى أن قريشا ظلمت المؤمنين بإخراجهم من ديارهم واستعمال كل الوسائل لإذيتهم.. فلم اعتبرهم ظالمين.. هل لكونهم كفرة، أم لكونهم منعوا المؤمنين من حرية التدين بأي دين شاءوا؟

قال رجل من القوم: بل اعتبرهم ظالمين لكونهم منعوا المؤمنين من حرية التدين بأي دين شاءوا.

قال الحكيم: فأنتم مثلهم في هذا إذن.. بل أنتم أبشع منهم لأنكم جميعا على دين واحد، وإنما اختلفتم في بعض القضايا فقط.. ومع ذلك لم يستطع بعضكم تحمل بعض.

قال رجل من القوم: ولكن ما تقول في الآيات الني وردت في المرتدين؟

قال الحكيم: اقرأها بعقلـك وسـمعك.. وأخـبرني هـل تجـد فيها سيوفا أو رماحا؟

قال الرجل: ولكن الله تعالى أخبر عن العقوبات المشـددة على المرتدين، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْـدَ إِيمَـانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (90) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَـاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَـلَ مِنْ أَحَـدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًـا وَلَـوِ افْتَـدَى بِـهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَـذَابٌ أَلِيمٌ وَمَـا لَهُمْ مِنْ نَاصِـرِينَ ﴾ [آل عمران: 90، 91]

ابتسم الحكيم، وقـال: فهـل طبقتم مـا ورد في هـذه الآيـة الكريمة من عقوبـات بخصـوص من تختلفـون معهم، وتحكمـون بردتهم؟

سكت الرجل، فقال الحكيم: ما لك سكت؟.. أم أنـك تـرى أن العقوبـة المـذكورة أعظم من أن يسـتطيع أحـد من النـاس تطبيقها..

ثم التفت للجميع، وقال: أنـا أتحـدى الآن أي شـخص فيكم يحمل السلاح أو لا يحملـه أن يـأتيني بآيـة قرآنيـة واحـدة تحض على قتال من نختلف معهم في شؤون الدين والعقائد.

إن كـل الآيـات الكريمـة الـتي وردت في الـردة تحصـر العقوبة في الآخرة، وليس في الدنيا.

قام رجل من القوم، وقال: فما تقول في الآيات الني تأمر بالقتال والجهاد.. أم أنها منسوخة عندك؟

قال الحكيم: كل القرآن محكم.. ويستحيل أن يأمرنـا اللـه بأن نعبده بما ينهانا عن تنفيذه.. فـإن شـئت فـاقرأ لي منهـا مـا تراه لأخضع له[1]..

---

1) انظر هذه الآيات وغيرها كثير مع توجيهها كتاب (حرية الاعتقاد في القرآن الكريم والسنة النبوية للثيخ حسن بن فرحان المالكي)

قال الرجل: فقد قال تعالى في سور البقرة: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (190) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (191) فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (192) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (193) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (194)﴾ [البقرة: 190 - 194]

قال الحكيم: الآيات واضحة جدا.. وهي صريحة بأنه لا يجوز قتال المشرك لشركه، ولا الكافر لكفره، وإنما يقاتل المشرك والكافر لعداوته ومحاربته المسلمين، كما يشرع قتال الكافر إذا اضطهد المسلمين وأراد فتنتهم عن دينهم..

قال الرجل: فقد قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (216) يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (217) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (218)﴾ [البقرة: 216 - 218]

قال الحكيم: الآيات واضحة في دلالتها.. وهي إخبار بسبب مشروعية الجهاد، وهو وجود كفار معتدين أخرجوا المسلمين من ديارهم.

قال الرجل: فما تقول في قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا

إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (38) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (39) وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (40) [الأنفال: 38 - 40]

قال الحكيم: هذه الآيات آيات سلام لا حرب، فهي تأمر بقتال المشركين الذين يضطهدون من أسلم منهم ليردوهم عن دينهم عن طريق الإكراه، والأحاديث والسير متواترة في الدلالة على هذا المعنى.

قال الرجل: فلم عبرت عنهم بكونهم كفارا، ولم تعبر عنهم بكونهم معتدين؟

قال الحكيم: لتبين أن كفرهم وعدم إيمانهم بالله واليوم الآخر هو السبب في ذلك الطغيان والعدوان الذي يمارسونه على المستضعفين.. وهناك آيات كثيرة تدل على هذا.. والقرآن يفسر بعضه بعضا.

قال الرجل: فما تقول في قوله تعالى: إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (55) الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (56) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (57) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (58) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (59) وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (60) وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (61) [الأنفال: 55 - 61]

قال الحكيم: هذه الآيات الكريمة واضحة في الدلالة على أن الجهاد لا يشرع إلا في حق أولئك المعتدين من الكفار الذين

ينقضون عهودهم، وليس بعد النقض إلا القتال.. وما تواتر من السيرة يدل على ذلك.

قال الرجل: فما تقول في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (1) إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ (2) لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (3)﴾ [الممتحنة: 1 - 3]

قال الحكيم: هذه الآيات الكريمة ذكرت الأسباب الموجبة لقتال الكفار، وهي محاربة من أراد إخراج الرسول ﷺ والمسلمين من ديارهم، ومن استعدادهم لقتال المسلمين إذا ثقفوهم في أي مكان، فهم أعداء صرحاء، ومحاربون أصليون، وقتالهم ليس من باب القتال على الدين والعقيدة، وإنما لمحاربتهم.

قال الرجل: فما تقول في قؤله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (8) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (9)﴾ [الممتحنة: 8، 9]

قال الحكيم: هذه الآيات من أصرح الآيات النى تذكر أسباب مشروعية الجهاد، وأنه فقط في حق الذين يقاتلون المسلمين على دينهم ليردوهم عنه، ويخرجونهم من دارهم، أو في حق الذين يظاهرون المشركين ويساعدونهم على هذه الأمور.. بل الآيات تأمر بالبر والإحسان للمشركين والكفار الذين لم يظاهروا عليهم عدوا ولم يحاربوهم ولم يخرجوهم من ديارهم.

قـال الرجل: فما تقـول في قوله تعـالى: فَلْيُقَاتِـلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَـاةَ الـدُّنْيَا بِـالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِـلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًـا (74) وَمَـا لَكُمْ لَا تُقَـاتِلُونَ فِي سَـبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْـعَفِينَ مِنَ الرِّجَـالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْـدَانِ الَّذِينَ يَقُولُـونَ رَبَّنَـا أَخْرِجْنَـا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَـةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا [النساء: 74-75]

قال الحكيم: هـذه الآيـات واضـحة في الدلالـة على أن من أسباب تشريع الجهاد محاربة الاضطهاد الديني.. فكفـار قـريش أو غـيرهم إذا اضـطهدوا المسـلمين دينيـا، فـالواجب نصـرة المستضعفين الذين يجدون أقسى أنـواع العـذاب لأنهم اختـاروا الإيمان يالإسلام ديناً.. وهناك آيات قرآنية أخرى تبين أن الجهـاد يجب أن يكون ضد كل مضـطهد حـق الـذين يضـطهدون اليهـود والنصاى.

قال الرجل: فما تقول في قوله تعالى: قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْـرَابِ سَـتُدْعَوْنَ إِلَى قَـوْمٍ أُولِي بَـأْسٍ شَـدِيدٍ تُقَـاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْـلِمُونَ فَـإِنْ تُطِيعُـوا يُـؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْـرًا حَسَـنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَـا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَـذِّبْكُمْ عَـذَابًا أَلِيمًـا [الفتح: 16]، فهـذه الآيـة واضـحة في الدلالـة على مشـروعية الإكـراه الـديني، ومبـادأة الآخرين بالقتال لإدخالهم في الإسلام.

قـال الحكيم: لا.. ليس كمـا فهمت.. فـالقرآن لا يضـرب بعضه بعضا.. فلا يجوز أن تتناقض هذه الآية مـع الآيـات الكثـيرة الأخرى التي تنهى عن الإكـراه في الـدين، أو تلـك الآيـات الـتي تعلل الجهاد بعلل وجود المحاربين أو المضطهدين غيرهم دينيا.

قال الرجل: فما تقول في تعليل غاية الجهاد بالإسلام، فقد قال تعالى: تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ [الفتح: 16]؟

قال الحكيم: ليس كما فهمت.. وإلا تنـاقض القـرآن بعضـه مع بعض.. وإنما المرد بالإسلام هنا ـ كمـا هـو معهـود في اللغـة العربية ـ (الإنقياد).. أي: أو ينقادون.

وهذه الآية تشبه الآية التي تتحدث عن الأعراب ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: 14]، أي: استسلمنا وانقدنا إلى نظام الدولة العادلة، فإن الإيمان يعني القناعة الداخلية، أما الإسلام فكل من دخل تحت نظام الدولة العادلة، والتزم نظامها فيدخل في مسمى الإسلام بالمعنى العام الذي هو (الانقياد)

قال الرجل: فما تقول في آية السيف، وهي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: 5]، وهي الآية النبي ذكر سلفنا أنها نسخت كل آيات الرحمة والحكمة والإحسان في القرآن الكريم.

قال الحكيم: اقرأ الآيات من بداية سورة التوبة، وتدبر فيها وستراها منسجمة مع القرآن جميعا.. فالآيات تتحدث عن نوع خاص من المشركين كانوا محاربين، ثم ناكثي عهود، ثم منافقين يتربصون الفرص، ويظاهرون على المؤمنين.

قال الرجل: ها أنت تفسر القرآن بحوادث تاريخية تحصرها فيها.. فما الفرق بين هذا وبين ما يفعله النسخ؟

قال الحكيم: لا. أنا استعنت بالتاريخ..ولم أفسر القرآن به.. فالقرآن كلام الله.. وحقائقه تدل على سنن الله في خلقه.. وهي تنطبق على المجتمعات جميعا.

قال الرجل: فكيف توجه ما ذكرت من تخصيصات؟

قال الحكيم: هي لا تحتاج لي لأوجهها.. فالقرآن غني بنفسه.. والتخصيص الذي ذكرته موجود في ا لآيات نفسها، فالله تعالى يقول في بداية السورة: ﴿بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [التوبة: 1].. فالآيات تتحدث عن نوع خاص، وليست من الآيات النبي تسن قانونا عاما

كقولِهِ تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ [البقرة: 190]

بالإضافة إلى هذا فإن السياق الذي وردت فيه ما تسميها بآية السيف تدل على الأمر بإجارة المستجيرين من المشركين المحاربين حتى يسمعوا كلام لله، ثم يتم إيصالهم إلى مأمنهم، بمعنى أن يصلوا إلى قومهم المشركين المحاربين، وهذا ظاهر أنه لا دلالة فيه على الإكراه في الدين، وإنما كان سبب القتال هو المحاربة والعداوة من أنوع خاصة من المشركين، وليس الموضوع مسألة إكرإه على الدين، وإلا فكيف يجار المشرك، ثم تتم حمايته إلى أن يبلغ مأمنه، فلو كان الكفر سبب القتال لما كانت هذه الإجار والحماية.

بالإضافة إلى هذا فإن في الآيات استثناء للذين عاهدهم المسلمون عند المسجد الحرام، فأمر الله عز وجل بالاستقامة لهم على العهود وتحريم نقضها، وهذا يدل على أن الآيات نزلت في محاربين وناقضي عهود ومتآمرين على الدولة النبوية..

ألقى رجل من المحاربين سيفه، وقال: الحمد لله لقد فتح الله علي بسبب قولك هذا ما كان محجوبا عني من سماحة الإسلام وسلامه ورحمته.. لقدكنت أتصور أن القرآن جميعا نسخ بتلك الآية.. ولكني الآن أراها بمنظار آخر.

واسمحوا لي إخواني ممن حملت عليكم سيفي، أو حملتم سيوفكم علي أن أشرح لكم بمثال ما فتح الله علي من فهمها.

إن مثل ذلك مثل مدير مدرسة جمع المشاغبين من الطلاب في المرحلة المتوسطة، والمشاغبين في المرحلة الثانوية، ثم أمر المدير أحد المعلمين أن يستدعي أولياء أمور (طلاب المرحلة المتوسطة)، وأن يخصم الدرجات على (طلاب المرحلة الثانوية)، فإن المراد هنا هو خصم درجات طلاب المرحلة الثانوية (المشاغبين) واستدعاء أولياء الطلاب المشاغبين من المرحلة المتوسطة، وليس خصم درجات كل طلاب الثانوية ولا استدعاء كل أولياء أمور طلاب المتوسطة،

فكيف إذا أضاف المدير بالتنصيص على أن من لم يشــاغب من طلاب المرحلـتين لا ينالـه خصـم درجـة ولا اسـتدعاء ولي أمـر، وفي سورة التوبة قد أتى الاسـتثناء واضـحا، وهـو قولـه تعـالى: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَـدْتُمْ مِنَ الْمُشْـرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُـوكُمْ شَـيْئًا وَلَمْ يُظَـاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَـدًا فَـأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْـدَهُمْ إِلَى مُـدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: 4]

قال رجل من القوم: فما تقول في قولـه تعـالى في نفس السياق: ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَـبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُـورٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبـة: 5]، فالآيــة تشـير إلى أن إخلاء سبيل المشركين والكف عنهم لن يتم إلا بالتوبة وإقامة الصــلاة إيتاء الزكاة.. أليس في ذلك إكراها؟

قال الحكيم: لا.. وإلا ضرب القرآن بعضه بعضا.. مرد الآيـة الكريمة هو وصف لمآل هؤلاء بأن من تـرك محاربـة المسـلمين وامتنع عن معاداتهم سيصبح في آخر الأمر مقيماً للصلاة ومؤدياً للزكاة وأخاً لبقية المسلمين، كما قال تعالى في آيـة أخـرى في سورة الممتحنة: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الممتحنة: 7]

فهـذه المـودة لن تكـون إلا بعـد تـوبتهم بإقـامتهم الصـلاة وإيتائهم الزكاة وهذا ما حصل لأكثر القبائل حول مكـة والمدينـة إذ أصبحوا أخوة للمسلمين الأوائل.

قام رجل من القوم، وقال: أرك تستدل بـالقرآن.. وتنسـى الحديث.. ألا تعرف بأن السنة تفسر القرآن؟

قال الحكيم: بلى.. السنة تبين القرن.. ولا تتناقض معه.

قـال الرجـل: وأحـاديث الـردة.. أنسـيتها.. أم أنـك من القرآنيين النين لا يؤمنؤن بالسنة؟

قال الحكيم: أنا من الذين ينسجمون مع القـرآن والسـنة.. ولا يضربون القرآن بالسنة.. وعلى هذا الميزان رحت أبحث عن كـل ا لأحـاديث الـواردة في الموضـوع، فوجـدتها على صـنفين:

صنف يتفق مع المراد القرآني. وهذا على العين والرأس.. لأنه يطبق ما ورد في القرآن الكريم من معان.. وصنف يتناقض مع القرآن.. وقد رميت به عرض الحائط..

أشهر رجل سيفه، وصاح: من أنت حتى ترمي بأحاديث رسول الله ﷺ غرض الحائط؟

قال الحكيم: فهات الحديث الذي تعتمدون عليه في قتال من يخالفكم.

قال الرجل: الحديث الذي هو أشهر من نار على علم.. والذي نحفظه كما نحفظ القرآن، وهو (من بدل دينه فاقتلوه)

قال الحكيم: أليس من رواة هذا الحديث عكرمة مولى ابن عباس؟

قال الرجل: أجل.. وهو من ثقاة المحدثين.

قال الحكيم: فهل انفرد به دون تلاميذ ابن عباس جميعا؟

قال الرجل: أجل.. وليس هناك من ضرر في ذلك.

قال الحكيم: بلى.. فيه ضرر.. فانفراد عكرمة بهذا الحديث عن ابن عباس دون بقية تلاميذه الأكثر اختصاصاً به كسعيد بن جبير وعطاء ومجاهد وغيرهم من دواعي التوقف في قبول هذا الحديث.. بالإضافة إلى ذلك فإن تلاميذ ابن عباس المتفق على ثقتهم يعدون بالعشرات ولم يرووه عنه رغم أهمية الحديث واختصاره وسهولة حفظه، ورغم ارتباطه بحد من الحدود الخطيرة.. فكيف يجهل عشرات الرواة عن ابن عباس هذا الحديث، ويجهل هذا الحديث الصحابة والتابعون، ويعلمها تابعي واحد هو نفسه محل إشكال واختلاف؟

قال الرجل: لا أسلم لك في هذا.. فالثقة مهما روى فهو صادق.. ولا يهم أن يروي الآخرون ما روى، أو يتكاسلوا عن روايته.

قال الحكيم: لا بأس.. فحدثني عن عكرمة.. أليس هو من

الخوارج الذين حاربوا الإمـام عليـا.. وهـذا الحـديث فيـه تجـريح خطير للإمام علي.

قال الرجل: حتى لو كان من الخوارج، فـالعبرة بصـدقه، لا بكونه خارجيا أو مبتدعا.

قـال الحكيم: لا بـأس.. فهـل اتفـق كـل علمـائكم على توثيقه؟

لم يجد الرجل ما يجيب بـه، فقـال الحكيم: لا بـأس.. أظن أن ذاكرتك خانتك حول كلام المحدثين عنه.. أو أن حرصك على صحة الحديث جعلك لا تنقب عن رواته وتدقق فيهم.

رمى الرجل بسيفه، وقال: صدقت.. لقد كنت أعرف جيـدا ما قيل في عكرمة.. ولكن لحرصي على صحة الحـديث لم أكن أهتم بذلك.. لقد رويت بسندي عن ابن عمـر أنـه قـال لنـافع: لا تكذب عليَّ كما كذب عكرمة على ابن عباس..

وفي ذلك أكبر تجريح له.. فالذي جرحـه ليس البخـاري ولا يحي بن معين، بل هو ابن عمر نفسه.. وهو من الصحابة.. وهـو يعرفه.. وهـو أدرى النـاس بـه.. ولكن لحبنـا للحـديث غفلنـا عن ذلك كله وتغافلنا عنه.

رمى آخر بسيفه، وقال: صـدقت.. وقـد رويت بسـندي عن جرير بن عبـد الحميـد عن يزيـد بن أبي زيـاد، قـال: دخلت على علي بن عبد اللـه بن عبـاس وعكرمـة مقيـد، فقلت: مـا لهـذا؟ قال: إنه يكذب على أبي (1).

رمى آخر بسيفه، وقال: صدقتما.. وقد قال ابن حجر عنه: (وفد

عكرمة على نجدة الحروري فأقام عنده تسـعة أشـهر، ثم رجـع إلى ابن عباس فسلم عليه، فقال: قد جاء الخـبيث قـال: فكـان يحـدث بـرأي نجـدة، وكـان يعـني نجـدة أول من أحـدث رأي الصفرية وقال الجوزجـاني قلت لأحمـد بن حنبـل أكـان عكرمـة

(1) انظـر: وفيـات الأعيـان 1:ـ 320، وتهـذيب التهـذيب 7:ـ 238 وسـير أعلام النبلاء للذهبي 5: 22.

إباضيا فقال: يقال: إنه كان صفرياَ، وقال أبـو طـالب عن أحمـد كـان يـرى رأي الخـوارج الصـفرية، وقـال يحـيى بن معين كـان ينتحل مذهب الصفرية ولأجـل هـذا تركـه مالـك، وقـال مصـعب الزبيري كان يرى رأي الخوارج)(1)

قال رجل من القوم: لا بأس.. فلنسلم لك بأن هذا الحديث قد يكون ضعيفا أو حتى مكـذوبا وموضـوعا.. لكن مـا تقـول في الحديث الآخر: (لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث..)، فقـد ذكر من تلك الثلاث: (التارك لدينه المفارق للجماعة)(2)

قال الحكيم: أليس من العجيب أن يـروى عن رسـول اللـه ﷺ حـديث يتضـمن هـذه الحـدود الخطـيرة.. أو هـذه القـوانين الجنائية الكثـيرة.. ثم لا يرويـه إلا الآحـاد من النـاس عن الآحـاد منهم.

قال الرجل: أتقصد رد حديث الآحاد؟

قال الحكيم: أنا لا أقصـد رده مطلقـا.. ولكن أسـتغرب أن تسن الدولة قانونـا خطـيرا، ثم لا يسـمع بـه إلا محـام واحـد، أو قاض واحدا.. أليس هذا عجيبا؟

قال الرجـل: وضـح قصـدك.. فنحن لا نفهمـك..ونخـاف أن تكون من الذين ينكرون السنة.

قال الحكيم: معاذ الله أن أنكر السنة، أو أتجرأ على ذلك.. ومعاذ الله أن أقبل أي كذبـة تنسـب إلى رسـول اللـه ﷺ باسـم السنة..

قال الرجل: فما تقصد بقولك ذلك؟

قال الحكيم: ألستم تزعمون أن السلف كانوا أكـثر النـاس حرصا على أحكام الدين وتبليغها؟

قال الرجل: بلى.. وكل تراثهم يشهد بذلك.

---

1) مقدمة فتح الباري 425.

2) رواه البخاري ومسلم.

قال الحكيم: أفلا يصيبك العجب أن ترى أحاديث تتعلق بفروع بسيطة من أمور العبادات التي لا دماء فيها ولا أموال، ومع ذلك تروى بالروايات الكثيرة المتواترة، ثم نجد مثل هذه الرواية يرويها الآحاد.. فلا يرويها من الصحابة إلا ابن مسعود.. ثم تتوقف من بعده على راو واحد هو سليمان بن مهران الأعمش.

قال الرجل: أراك تومئ للطعن في الصحابة.. وفي ابن مسعود.

قال الحكيم: معاذ الله أن أفعل ذلك.. فابن مسعود من صحابة رسول الله ﷺ.. ولا أتهم صدقه، ولا عدالته.. ولكني أتهم ذلك الذي يتوقف الحديث عليه.. أليس هو متهم عندكم، وعند محدثيكم؟

قال الرجل: أتقصد سليمان بن مهران الأعمش؟

قال الحكيم: أجل.. ألم يتهمه حفاظكم بالتدليس.. ألم يقل فيه الحافظ العلائي: (مشهورٌ بالتدليس، مكثرٌ منه)[1].. والمشكلة الكبرى في تدليسه أنه كان يدلس عن الضعفاء، وقد يدلّس تدليس تسوية.. وقد قال فيه ابن المبارك: (إنما أفسد حديث أهل الكوفة أبو إسحاق والأعمش لكم).. وقال المغيرة: (أهلك أهل الكوفة أبو إسحاق وأعيمشكم هذا).. وقال أحمد بن حنبل: (منصور أثبت أهل الكوفة، ففي حديث الأعمش اضطراب كثير).. وقال ابن المديني: (الأعمش كان كثير الوهم في أحاديث هؤلاء الضعفاء).. وقال سليمان الشاذكوني: (من أراد التديّن بالحديث، فلا يأخذ عن الأعمش ولا عن قتادة، إلا ما قالا: سمعناه)[2]

رمى الرجل سيفه، وقال: بورك فيك.. وأضيف إلى ما ذكرت بأن سائر الرواة الذين رووا الحديث كلهم متكلم فيهم، ومتهمون.. فأبو بكر بن أبى شبية قال عنه الحاكم: ليس

1) جامع التحصيل (1\ 188).

2) الخطيب، الكفاية (ص364)، ميزان الاعتدال (3\ 316)

بالمتين، وقال عنه أبو بكر بن أبى داود: ضعيف، وقـال عنـه ابن حيان: ربما أخطأ.

وأبو عمر النخعى كان قاضياً للدولة العباسية، ومن الفقهاء المتعاونين معها، وقد قال عنه أبو زرعه: (سـاء حفظـه بعـد مـا استقضى، أى بعد أن تولى القضاء)، أي أنه فقد الثقـة فيـه بعـد أن اختارته الدولة قاضياً.. وقـال عنـه داود بن رشـيد: حفص بن غيث كثير الغلط.. وقال عنه ابن عماد: كان عسراً فى الحــديث جداً، وقال عنه عبد الله بن أحمد بن حنبـل: قـال عنـه أبى: أنـه أخطأ.. وقال ابن حيان عن أحد مروياته فى الحديث: لم يحــدث بهذا الحديث أحد إلا حفص بن غيـاث كأنـه وهم فيـه.. أى انفـرد بحديث لم يقله أحد غيره، ولأنه غير ثقـة فقـد اتهمـه ابن حيـان بالوهم.

أما أبو معاوية الضرير، فقد قال عنـه الحـاكم أنـه احتج بـه الشيخان أى مسلم والبخارى وقد اشتهر عنه الغلو.. وقـال عنـه ابن معين: أبو معاوية أحـاديث منـاكير، وقـال عنـه العجلى: أنـه ثقـة ويـرى الإرجـاء، أى مدحـه بأنـه ثقـة ولكن اتهمـه أنـه من المرجئة، وتلك تهمه تعيب الراوى وقال عنـه يعقـوب بن شـيبة: أنه ثقة وربما دلس، وكان يرى الإرجاء.. أى أنه مدحه ثم اتهمــه بالتدليس وبأنه من المرجئة.. وقال عنـه أبـو داود: كـان مرجئـاً. وقال عنه أبو معاوية البجلى: فيه جهالة.

قام رجل من القوم يصيح: ما بالكم يا قوم ترفضـون سـنة رسول الله ﷺ بأمثال هذه الخـدع والحيـل.. أهـانت عليكم سـنة رسول الله ﷺ لهذه الدرجة؟

قال الحكيم: نحن لم نستهن بسـنة رسـول اللـه ﷺ، وإنمـا رحنا ندافع عنها، ونقـدم المتـواتر منهـا على الآحـاد.. والصـحيح على الضعيف..

قـال الرجـل: فهـل هنـاك أحـاديث متـواترة تنسـخ ذينـك الحديثين؟

قال الحكيم: أجل.. وقد وردت في الصحاح، وهي متواترة،

وأنت تعلم أن المتواتر مقدم على الآحاد.. وهي تدل على خلاف ما ذكرت.

قال الرجل: ما هي.. أنا قرأت كتب السنن جميعا.. ولم أرها.

قال الحكيم: منها (لا نكره أحداً على دين، فقد تبين الرشد من الغي..)، ومنها (لكم أيها الكفار دينكم ولنا ديننا لا نكرهكم على ديننا ولا تكرهوننا على دينكم..)، ومنها (لا يقتل رجل على دينه وإنما على حربه..)، ومنها (من بدل دينه فله نار جهنم خالداً فيها..)، ومنها (من ارتد على وجهه وترك دينه سيعاقبه الله بنار أعدها للكافرين..)، ومنها (من ترك دينه فسيغني الله عنه..)، ومنها (لا يحل لامريء يؤمن بالله أن يقعد مع من يستهزيء بآيات الله، فليجتنب مجلسهم..)

غضب الرجل غضبا شديدا وأشهر سيفه، وراح يقول: أنت كذاب وضاع حلال الدم.. فلا توجد أحاديث بهذه الألفاظ.

قال الحكيم: أنشدك بالله.. أريت لو أن هناك أحاديث متواترة بتلك الألفاظ أكنت ترجحها على حديث القتل؟

قال الرجل: أجل.. فالمتواتر مقدم على الآحاد.

قال الحكيم: فتلك الأحاديث هي نفس ما ورد في القرآن.. وهو متواتر.. ويستحيل على رسول الله ﷺ أن يخالف كلام ربه.

قال الرجل: هذه حجة ضعيفة.. نحن نريد أحاديث رواها الثقاة.

قال الحكيم: لا بأس.. لك ذلك.. لقد بحثت في ذلك.. فأنا أعلم أن بعضكم لا يقتنع بالقرآن الكريم إن خالف معتقده، لكنه يقتنع بحديث حسن الإسناد، أو صححه ابن حجر أو الألباني.. وقد جمعت في ذلك هذا المجموع، والذي سميته (حرية الاعتقاد في القرآن الكريم والسنة النبوية)[1].. وتجدون فيه

---

[1] وهو للشيخ حسن بن فرحان المالكي، وهو من أهم ما كتب في الموضوع، وقد حاولنا أن نلخص الكثير من الفوائد والاستنباطات منه هنا.

التفاصيل الكثيرة.

وقد وجدت أن ا لأحاديث المقررة لحرية الاعتقاد والمتفقة مع القرآن الكريم تنقسم إلى أربع مجموعات..

قالوا: فحدثنا عن **المجموعة الأولى** منها.

قال: هي تلك الأحاديث التي تذكر عرض رسول الله ﷺ ما أرسله الله به على القبائل، فهي جميعا تؤكد على حرية الاعتقاد لجميع الناس سواء من كان منهم من أهل الكتاب أو من غيرهم.. فالنبي ﷺ في تلك الأحاديث لم يكن يطلب منهم إلا النصرة لإبلاغ الرسالة وحمايته.. وهو طلب لمنع الاضطهاد الديني وإتاحة حرية الدعوة، ولو تحققت هذه الحرية في مكة لما طلب أحداً لحمايته من الاضطهاد والمنع من تبليغ ما أمره الله بتبليغه.

بل إن حوار النبي ﷺ مع تلك القبائل ـ كما تنص الروايات الكثيرة ـ لا يلزمها بالإيمان بالرسالة، وإنما يدعوها إلى ذلك، فمن أبى لم يكرهه على الإيمان.

قام رجل من القوم، وقال: إن مثل تلك الأحاديث قد نجدها في كتب السيرة.. وهي مما لا يعني شيئا في الاستدلال الفقهي..

قال الحكيم: كلا، فهذه الأحاديث لها أهمية كبرى، لأن العرض على القبائل يعكس الصورة الأدق للسنة النبوية أكثر من الأحاديث الفردية، وكذلك المعاهدات والمواثيق، فهذه يشارك فيها كثير من الناس، وهي أولى بالتطبيق من أحاديث الآحاد، والنبي ﷺ لا يخلف وعداً ولا ينقض ميثاقاً، وهو عندما يعرض نفسه على القبائل كان يكرر أنه يريد إبلاغ رسالة الله فقط، دون إكراه لأحد على دين، ولو نصرته قبيلة ثم تبين لها اختلاف وعده لهم بألا يكره أحداً لكان هذا مدخلاً للشك في النبوة.

قال الرجل: ما دام الأمر كما ترى بهذا الوضوح، فلم لم

يشتهر.. ولم خالفه المسلمون على مدار التاريخ؟

قرأ الحكيم قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: 1]، ثم قال: أراكم تريدون أن تقدموا المسلمين على سيد المسلمين.. وتقدموا ما ورثتموه من آراء على ما وردكم عن نبيكم.

قال الرجل: معاذ الله أن نفعل ذلك.. وإنما أستفسر عن سر ذلك.

قال الحكيم: أنتم تعلمون أن السلطان قد زاغ عن القرآن، كما أخبر رسول الله ﷺ.. ولم يكن من مصلحة الحكام أن تظهر أمثال تلك النصوص التي تعكر عليهم صفو حبهم للتوسع..

قال الرجل: ألا ترى أن ذلك كان مصلحة للإسلام والمسلمين.. فقد اتسعت أرضهم، ودخل الناس من بلاد كثيرة إلى الإسلام.

قال الحكيم: ولو أنهم نشروا ـ بدل ذلك ـ تعاليم السماحة والسلام، وانتشروا بالحكمة والموعظة الحسنة.. لدخل في الإسلام طواعية أكثر مما دخل فيه تحت الحروب الطاحنة، بل إن التاريخ يشهد أن عدد المسلمين الذين اعتنقوا الإسلام عبر الدعوة والتجارة أكثر بكثير من عدد المسلمين الداخلين بالفتوح.

قام رجل آخر، وقال: إلى الآن نسمع جعجعة ولا نرى طحينا.. أين هذه الأحاديث التي تدعي وجودها.. أم أنك لفقتها من عندك لتتلاعب بعقولنا وعواطفنا، وتهز نيران الغيرة على الدين من قلوبنا.

قال الحكيم: من تلك الروايات ما حدث به عروة بن الزبير قال: لما أفسد الله عز وجل صحيفة مكرهم خرج النبي ﷺ وأصحابه، فعاشوا وخالطوا الناس ورسول الله ﷺ في تلك السنين يعرض نفسه على قبائل العرب في كل موسم، ويكلم

كل شريف لا يسألهم مع ذلك إلا أن يؤووه ويمنعوه ويقول: (لا أكره منكم أحدا على شيء؛ من رضي الذي أدعوه إليه قبله، ومن كرهه لم أكرهه، إنما أريد أن تحوزوني مما يراد بي من القتل، فتحوزوني حتى أبلغ رسالات ربي ويقضي الله لي ولمن صحبني بما شاء)، فلم يقبله أحد منهم، ولا أتى على أحد من تلك القبائل إلا قالوا: قوم الرجل أعلم به أفترى رجلا يصلحنا وقد أفسد قومه؟)(1)

قال الرجل: وعينا هذا.. لكن ما وجه دلالتها على ما تدعونا إليه؟

قال الحكيم: إنها واضحة جدا في الدلالة على ما دعوتكم إليه، فالنبي ﷺ لم يوجب على من ينصره الإسلام، ولم يشترط عليه الإيمان ولم يعزله عن الجماعة، ولم يفرض عليه جزية، ولم يخصه بمعاملة تنتقص منه، وإنما اشترط أن يكون تحت السقف العام في نصرة النبي ﷺ ومنعه من أعدائه حتى يبلغ رسالة ربه، ولا يعقل أن نظن أن النبي ﷺ لو وافقته قبيلة على ذلك، ثم أسلم الناس ولم تسلم تلك القبيلة أنه سيأمر باستئصالها، فهذا التصور المهين للنبي ﷺ لم يكن يقول به أو يتصوره أعداؤه ومحاربوه، فكيف يتصوره حملة سنته وناشرو سيرته وفضله وأخلاقه؟

رمى رجل من القوم سيفه، وقال: صدقت.. وقد حدثني من أثق به عن أم المؤمنين عائشة أنها قالت: (كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه في كل سنة على القبائل من العرب أن يؤووه إلى قومهم حتى يبلغ كلام الله عز وجل ورسالاته ولهم الجنة) (2)

رمى آخر سيفه، وقال: صدقت.. وقد حدثني من أثق به عن كعب بن مالك قال: (أقام رسول الله ﷺ ثلاث سنين من نبوته مستخفيا ثم أعلن في الرابعة، فدعا عشر سنين يوافي

---

1) أبو نعيم الأصبهاني في دلائل النبوة (ج 1 / ص 258)

2) دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني (ج 1 / ص 254).

الموسم يتبـع الحـاج في منـازلهم بعكـاظ ومجنـة وذي المجـاز، يدعوهم إلى أن يمنعوه حـتى يبلـغ رسـالة ربـه عـز وجـل ولهم الجنــة فلا يجــد أحــدا ينصــره، حــتى إنــه يســأل عن القبائــل ومنازلهم، قبيلة قبيلة، حـتى انتهى إلى بـني عـامر بن صعصـعة فلم يلق من أحـد من الأذى قـط مـا لقي منهم حـتى خـرج من عندهم وإنهم ليرمونه من ورائه..)[1]

فهـذا الحـديث يقـوى الحـديثين السـابقين.. وسـنده قـوي، ودلالتـه واضـحة لا يمكن الجـدال فيهـا.. لكن عقولنـا المغلولـة بأغلال الكبر جعلتنا لا نلتفت لذلك.

رمى آخر سيفه، وقال: صدقت.. وقـد حـدثني من أثـق بـه عن جابر بن عبد الله قال: كـان رسـول اللـه ﷺ يعـرض نفسـه على الناس بالموقف يقول: ألا رجل يعرضني على قومه؟ فــإن قريشــا قــد منعـوني أن أبلـغ كلام ربي، قـال: فأتـاه رجـل من همدان فقال: ممن أنت؟ قال: من همـدان، قـال: فعنـد قومـك منعة؟ قال: نعم، فذهب الرجل ثم إنه خشــي أن يخفـره قومـه فرجع إلى النبي ﷺ، فقال: أذهب فأعرض على قـومي ثم آتيـك فذهب وجاءت وفود الأنصار في رجب..)[2]

فهذا الحديث واضح الدلالة في أن مهمـة النـبي ﷺ تقتصـر على البلاغ، وحماية هذا البلاغ بقتال المحارب له والمعتدي على بيضة الدولة الناشئة بكـل مواطنيهـا مسـلمين ويهـود ومنـافقين وكفار.

رمى آخر سيفه، وقال: صدقت.. وقـد حـدثني من أثـق بـه عن جابر بن عبد الله: أن النبي ﷺ لبث عشر سنين يتبع النــاس في منازلهم في الموسـم ومجنـة وعكـاظ ومنـازلهم من مـنى، يقول: (من يؤويني، من ينصرني، حـتى أبلـغ رسـالات ربي فلـه الجنة؟) فلا يجد أحدا ينصره ولا يؤويه)[3]

1) دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني (ج 1 / ص 255)

2) دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني (ج 1 / ص 253).

3) المستدرك على الصحيحين للحاكم (ج 10 / ص 34).

وهـذا الحـديث يـبين أن سـبب العـرض هـو أن قريشـاً اضطهدت النبي ﷺ ومنعته من دعوة الناس، وهذا يـدل على أن الهجرة كانت لهذا السبب، وليس التهيؤ للقتال، ولو لم تضـطهد قـريش المسـلمين، ومنعهم النـبي ﷺ من عـرض الإسـلام لمـا هاجر.

قام رجل من القوم، وهو مسلط سيفه، وقـال: قـد علمنـا هذا.. لكنه غير كاف لإقناعنا بما تقول.. فهات المجموعة الثانيـة من الأحاديث التي تزعم أنها تؤيدك.

قال الحكيم: هي الأحاديث التي رويت في بيعة العقبـة مـع الأنصار.. وهي بيعة على أساسيات الدين، ومنها: أن نقول الحق أينما كنا لا نخشى في اللـه لومـة لائم، وعلى الأمـر بـالمعروف والنهي عن المنكر، وأن من ارتد عن هـذه البيعـة ونكث فـأمره إلى الله، وليس هناك أمر بقتله ولا إكراهه على الدين.

رمى رجل بسيفه، وقـال: صـدقت.. ولي إجـازة بأسـانيدها الكثيرة.. بل أجمع عليها أهل المغـازي والسـير وأهـل الحـديث، وكلها تذكر أن النبي ﷺ بايع الأنصار ثلاث بيعـات، وكـانت الأولى والثانيـة غـير ملزمـتين، وإنمـا همـا بيعتـان على الإسـلام، كـأي مجموعة تسلم وتتلقى أوامر الـدين الجديـد، أمـا البيعـة الثالثـة فهي ملزمة وهي تستوجب قتـال المحـاربين للـدعوة الجديـدة، وهجرة النبي ﷺ والوعد بحمايته.. وكانت هذه البيعة بمكـة قبـل الهجرة بسنة، وقد رويت من طرق عن كثير من الصـحابة ممن شهدها منهم عبادة بن الصامت وجـابر بن عبـد اللـه، وغـيرهم.. وليس في هـذه الأحـاديث جميعـا دعـوة لقتـل المرتـد، أو قتـل الناس لأجل دينهم.

رمى آخر بسيفه، وقال: صدقت.. فكل مـا في تلـك البيعـة هـو الـدعوة لتكـوين جماعـة تحمي النـبي ﷺ ليبلـغ رسـالته إلى الناس، والتعاون بين أفراد تلـك الجماعـة على العـدل ومحاربـة الظلم إما بالسيف وإما الكلمـة، وعلى التعـاون والتكـاتف فيمـا بينهم، ورضا الجميع مسبقاً بإيثار الوافـدين الفقـراء بشـيء من الممتلكات الخاصة حتى يغني الله الجميع.

رمى آخر بسيفه، وقال: صدقت.. وقد كان الصحابة يستدلون بتلك البيعة في شؤونهم جميعا، ومن ذلك ما روي أن عبادة بن الصامت قال: (بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة، في العُسر واليُسر، والمنْشَط، والمكْرَه وعلى أثَرَةٍ علينا، وعلى ألا تُنازع الأمر أهْلَهُ، وعلى أن نقول بالحق أينما كُنّا لا نخافُ في الله لَوْمَةَ لائم.وفي رواية بمعناه، وفيه (ولا تُنازع الأمر أهله)، قال: (إلا أن تَرَوْا كُفرًا بَواحًا، عندكم فيه من الله برهان)[1]

قام رجل من القوم، وهو مسلط سيفه، وقال: قد علمنا هذا.. لكنه غير كاف لإقناعنا بما تقول.. فهات المجموعة الثالثة من الأحاديث التي تزعم أنها تؤيدك.

قال الحكيم: هي الأحاديث التي وثقت لأعظم وثيقة حقوقية بامتياز، وهي الوثيقة المسماة [وثيقة المدينة]، وليس فيها دعوة إلى الإسلام، ولا إكراه عليه، بل فيها أن المسلمين ومن تحالف معهم كاليهود أمة واحدة دون الناس.

رمى رجل بسيفه، وقال: صدقت.. فقد كانت تلك الوثيقة بمثابة دستور للمسلمين، وكان المسلمون فيها في منتهى قوتهم، ومع ذلك لم تتضمن أي عقوبة تتعلق بالمخالف، ولا المرتد.

رمى آخر بسيفه، وقال: صدقت.. وقد رويتها بالأسانيد الكثيرة.. وهي تتشكل من نحو خمسين بنداً، وليس فيها أي بند يصادر حرية الاعتقاد.. بل ليس فيها سوى الدعوة إلى التكاتف والتحالف ضد كل ظالم ومحارب.. وهي تمتلئ بالدعوة إلى العدل والبر وذم الظلم ووجوب التعاون لاستئصاله.

رمى آخر بسيفه، وقال: صدقت.. فبنود الوثيقة كلها تدعو إلى نصرة العدل.. وليس نصرة دين على آخر ولا قوم على آخرين.. نعم فيها الترغيب في الإسلام والدعوة إليه، ولكن ليس فيها الإكراه عليه ولا اشتراطه للانضمام إلى الوثيقة.

---

1) رواه البخاري ومسلم.

رمى آخر بسيفه، وقال: صدقت.. فبنود الوثيقة أوثق من كل الأحاديث التي يروونها في منع التعددية داخل الصف الإسلامي ومحاربة حرية الفكر، فالوثيقة تستوعب اليهود وهم أكثر الناس عداوة للذين آمنوا، وكانوا في المدينة أقلية وكان في المستطاع أن يخرجهم المسلمون من أي اتفاقية، لكن لم يفعل ذلك النبي ﷺ والدليل على استطاعة المسلمين فعل ذلك أنه عند خيانتهم أخرجهم بسهولة من المدينة وأجلاهم، فليسوا ممن يخاف جانبهم حتى يتنازل لهم المسلمون عن أمور لا تحق لهم.

قام رجل من القوم، وهو مسلط سيفه، وقال: قد علمنا هذا.. لكنه غير كاف لإقناعنا بما تقول.. فهات المجموعة الرابعة من الأحاديث التي تزعم أنها تؤيدك.

قال الحكيم: هي أحاديث كثيرة عن مرتدين في عهد رسول الله ﷺ.. ومع ذلك لم يطبق عليهم الحد الذي ادعيتموه.. وذلك أكبر دليل على عدم صحة حديث عكرمة في قتل المرتد.

قال الرجل: هذه دعوى.. فما دليلها.

قال الحكيم: إن شئتم أوردتم لكم أربعة أدلة على ذلك.

قال الرجل: فهات الدليل الأول.

قال الحكيم: هو ما روي في الصحاح التي تعتمدونها عن جابر قال: جاء أعرابيّ إلى النبيِّ ﷺ فبايعه على الإسلام، فجاء من الغد محموما - وفي رواية: فأصاب الأعرابيَّ وَعَك بالمدينة - فقال: أَقِلْني بيعتي، فأبى، ثم جاءه، فقال: أقلني بيعتي، فأبى، فخرج الأعرابيُّ، فقال رسولُ الله ﷺ: (إنما المدينة كالكير، تنفي خَبَثَها ويَنصَع طَيِّبُها)(1)

فمع أن هذا الرجل طلب من النبي ﷺ أن يرتد، وينقض بيعته التي كانت على الإسلام، ومع أن النبي ﷺ لم يقره على هذا، لكنه أيضاً لم يأمر أحداً بإرجاعه واستتابته وقتله إن لم

1) رواه البخاري ومسلم.

يتب في نفس الوقت الذي نـرى النـبي ﷺ يـأمر بـاللحوق بتلـك المــرأة الــتي تحمــل كتابــاً من حــاطب بن أبي بلتعــة، ويــأمر باللحوق ببعض أصحاب الجنايات كالعرنيين.. وهذا يــدل على أن الردة ليست جناية يتابع عليها المرتد ويستتاب، وإنما اكتفى بذم ذلك الرجل وهذا حق.

قال الرجل: وعيت هذا.. فهات الدليل الثاني.

قال الحكيم: هو ما روي في الصـحاح الـتي تعتمـدونها عن أنس قال: كان رجل نصرانيا فأسلم، وقرأ البقــرة وآل عمــران، فكان يكتب للنبي ﷺ فعاد نصرانيا، فكان يقول: (ما يدري محمد إلا ما كتبت له)، فأماته الله، فدفنوه، فأصبح وقد لفظته الأرض، فقالوا: هـذا فعـل محمـد وأصـحابه لمـا هـرب منهم نبشـوا عن صاحبنا فألقوه، فحفروا له فأعمقوا فأصبح وقـد لفظتـه الأرض، فقالوا هذا فعل محمـد وأصـحابه نبشـوا عن صـاحبنا لمـا هـرب منهم)[1]

فهذا الحديث يفيد بأنه لم يعاقب، مـع أنــه ليس ذا شــوكة، فليس هو من اليهـود، ولا من الأنصــار، ولا من قــريش، بــل هــو رجل نصراني، ارتد بمحض إرادته ولم يستتبه النبي ﷺ ولم يأمر بقتله، وإنما مات حتف أنفه، وهو يفيد أيضــا بــأن أمــر النــبي ﷺ لقتــل ابن أبي الســرح – الــذي له قصة مماثلة- إنما كــان الأمر بقتله على أمر زائد في المحاربة وهو اللحــــوق بالمشــــركين ومناصرتهم على النبي ﷺ فالقضية فيها خيانة عظمى، ومع ذلك فقد قبل النبي ﷺ الشفاعة فيه ولم يقتله.

قال الرجل: وعيت هذا.. فهات الدليل الثالث.

قــال الحكيم: هــو مــا روي في الحــديث المتــواتر عن ردة عبيد الله بن جحش، وكـان من المهـاجرين إلى الحبشـة، وكـان النجاشـي قـد أسـلم، وهـو ملـك الحبشـة، فلم يـأمره النـبي ﷺ باستتابته، ولا قتله ولا أهدر دمه، علماً بأن النجاشـي قـد أرسـل بعض مسـلمي الحبشــة لنصـرة النـبي ﷺ ووصـل أوائلهم قبـل

1) رواه البخاري ومسلم.

الهجرة ومنهم ابن النجاشي نفسه.

قال الرجل: وعيت هذا.. فهات الدليل الرابع.

قال الحكيم: هو ما روي في الحديث عن أبي رافـع مـولى النبي ﷺ وغيره أن النبي ﷺ بعث عليا مبعثا فقـال لـه: امض ولا تلتفت - أي لا تدع شيئا مما آمرك به - قال: يا رسول الله كيف أصنع بهم؟ قال: (إذا نزلت بساحتهم فلا تقاتلهم حـتى يقـاتلوك، فإن قاتلوك فلا تقاتلهم حتى يقتلوا منكم قتيلا، فإن قتلـوا منكم قتيلا فلا تقاتلوهم حتى تريهم إيـاه، ثم تقـول لهم: هـل لكم إلى أن تقولوا لا إله إلا الله؟ فإن قالوا نعم فقـل، لهم: هـل لكم أن تصـلوا؟ فـإن قـالوا نعم فقـل لهم: هـل لكم أن تخرجـوا من أموالكم الصدقة؟ فإن قالوا نعم فلا تبـغ منهم غـير ذلـك، واللـه لأن يهـدى اللـه على يـديك رجلا خـير لـك ممـا طلعت عليـه الشمس وغربت)[1]

وموضع الشاهد في الحديث واضح، وهو أن النـبي ﷺ كـان يبعث السرايا لأمرين إما لمحاربة محاربين، أو للدعوة إلى الله، ولا يبعثها لقتال مشركين ابتداءً.

وهذا الحديث يدل على أن النبي ﷺ كـان ينهى عن القتـال في سرايا الدعوة حـتى يقتـل المشـركون من المسـلمين رجلاً، ثم بعد ذلك يتم عرض الإسـلام عليهم، وإهـدار مـا اقـترفوه من دم المسلم، فإن قبلوا يتم إهدار دمه، وإن أبوا قوتلوا على هـذا الظلم والعدوان لا على إدخالهم للإسلام.

رمى رجـل من القـوم سـيفه، وقـال: صـدقت.. فهـذه الأحاديث صحيحة وصريحة، وكنت أقرؤهـا دائمـا، وأتعجب كيـف سار تاريخ المسلمين على خلافها.

قـال الحكيم: لا تتعجب، فقـد أخـبر رسـول اللـه ﷺ عن انحراف الأمة عن دينها بسبب تسلط الطـواغيت عليهـا، وإعانـة رجال الدين لهم..

---

1) السـير الكبـير للفقيـه الحنفي الشـيباني (189هــ) (ج 1 / ص 78)، و مغـازي الواقدي (ج 1 / ص 1079)

قال الرجل: صدقت.. وقد تعجبت لكثرة ذكر الفقهاء لما يسمونه استتابة، مع أني لم أر في ذلك حديثا واحدا..

قال الحكيم: صدقت.. فـ (الاستتابة الإكراهية) لا وجود لها في الدين، والإكراه في الاستتابة اخترعها من اخترعها لتكون مقدمة للقتل، ولم يكن النبي ﷺ يكره أحداً على الاستتابة وقد سجل القرآن الكريم هذا، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (60) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا (61) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (62) أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا (63) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا (64) فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (65)﴾ [النساء:60-65]

قال الرجل: صدقت.. فهذه الآيات الكريمة صريحة في أن التوبة كانت تعرض عليهم، وينصحون بها بعد نطقهم بالكفر، لكنهم يصدون ويأبون، فأين كلام الفقهاء الكثير جداً (يستتاب فإن تاب وإلا قتل)؟

رمى آخر سيفه، وقال: صدقت.. وقد كان المنافقون يجاهرون بنفاقهم ويعاندون في الرد على الله ورسوله إلا أنهم مع ذلك لم يفصلوا عن الجماعة، ولم تعلن عليهم الحرب، ولم تبح دماءهم..

لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (5) سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (6) هُمُ

الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ (7) يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ [المنافقون: 5 - 8]

وقال تعالى: وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا [النساء: 61]

رمى آخر سيفه، وقال: لقد وردت آيات كثيرة في هذا المعنى.. ومنها قوله تعالى:الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (67) وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ [التوبة: 67، 68]

فهاتان الآيتان الكريمتان تشيران إلى أن المنافقين وقفوا على شفا الخيانة العظمى، لكن لأنهم لم ينفذوا وعدهم لليهود لم يقاتلهم النبي ﷺ واكتفى بفضح الله لهم ورده عليهم وكشف أسرارهم.. وهذه الآيات لو نزلت على فقهائنا لأبادوا نصف المسلمين بدعوى الردة، فكيف وحركة النفاق هذه استمرت إلى آخر النبوة، تتجدد مع الأيام، يتوب القليل ويستمر الأكثرون، وينضم إليهم من انضم، حتى ذكر ابن عباس وغيره أن النفاق في آخر عهد النبي ﷺ كان أكثر من أوله، ولو كانت هناك استتابات وقتل لمن يتفوه بمثل الكلام الكفري السابق لما بقي من المنافقين من يجرؤ على مثل هذه الأقوال والأعمال.

رمى آخر سيفه، وقال: لقد ذكرني حديثكم هذا ببعض مشايخنا الذي كان يردد كل حين هذه العبارة [يستتاب، فإن تاب وإلا قتل]، وعندما سألناه عن سر ترديده لها بعد كل حكم شرعي، ذكر لنا أن شيخه فيها هو ابن تيمية.. ثم ذكر لنا أنه جمعها في مصنف خصها به، ثم راح يقرأ لنا منها أمثال هذه الفتاوى: (من قال لرجل: توكلت عليك أو أنت حسبي أو أنا في حسبك .. يستتاب فإن تاب وإلا قتل.. من اعتقد أن أحدا من

أولياء الله يكون مع محمد كما كان الخضر مع موسى، فإنه يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه.. الرجل البالغ إذا امتنع من صلاة واحدة من الصلوات الخمس أو ترك بعض فرائضها المتفق عليها فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل.. من لم يقل أن الله فوق سبع سمواته فهو كافر به حلال الدم يستتاب فإن تاب والا ضربت عنقه، وألقى على بعض المزابل.. من قال القرآن محدث فهو عندى جهمى يستتاب فإن تاب والا ضربت عنقه.. من قال إن أحدا من الصحابة أو التابعين أو تابعى التابعين قاتل مع الكفار فهذا ضال غاو بل كافر يجب ان يستتاب من ذلك فإن تاب وإلا قتل.. من اعتقد صحة مجموع هذه الأحاديث فإنه كافر يجب أن يستتاب فإن تاب وإلا قتل.. من جحد حل بعض المباحات الظاهرة المتواترة كالخبز واللحم والنكاح فهو كافر مرتد يستتاب فإن تاب والا قتل.. إن اضمر ذلك (يعني تحريم اللحم أو الخبز أو النكاح) كان زنديقا منافقا لا يستتاب عند أكثر العلماء، بل يقتل بلا استتابة إذا ظهر ذلك منه.. من لم يلتزم هذا الشرع أو طعن فيه أو جوز لأحد الخروج عنه فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل .. من ادعى ان له طريقا إلى الله يوصله إلى رضوان الله وكرامته وثوابه غير الشريعة التى بعث الله بها رسوله فإنه أيضا كافر يستتاب فإن تاب وإلا ضربت عنقه.. أكل الحيات والعقارب حرام باجماع المسلمين فمن أكلها مستحلا لذلك فإنه يستتاب فإن تاب وإلا قتل.. من قال القرآن مخلوق وانه يستتاب فإن تاب والا قتل.. من قال ان الله لم يكلم موسى تكليما يستتاب فإن تاب والا يقتل.. من ظن أن التكبير من القرآن فإنه يستتاب فإن تاب والا قتل.. من أخر الصلاة لصناعة أو صيد أو خدمة أستاذ أو غير ذلك حتى تغيب الشمس وجبت عقوبته بل يجب قتله عند جمهور العلماء بعد أن يستتاب.. من قال إنه يجب على المسافر أن يصوم شهر رمضان وكلاهما ضلال مخالف لاجماع المسلمين يستتاب قائله فإن تاب وإلا قتل)(1)

هذه مجرد أمثلة عن فتاواه الكثيرة المملوءة بالحقد

(1) هذه نصوص لفتاوى في مواضع متفرقة من كتب ابن تيمية، وخصوصا مجموع الفتاوى.

والكراهية، والبعيدة عن القيم القرآنية.. وللأسف فقد كانت هي زادنا الذي كان مشايخنا يزودوننا به، فلذلك امتلأنا بكـل أصـناف العداوة والبغضاء.

سادسا ـ الإحسان

قام الحكيم السادس بين الصفين، وقال: أجيبوني يا من لا تزالون تحملـون سـيوفكم.. أليس الإحسـان من القيم العظمى التي نادى بها القرآن الكريم، وأوجبها على المؤمنين؟

قـال أحـدهم: بلى.. وهـل في ذلـك شـك؟.. إن صـبياننا يعلمون هذا، وكيف لا يعلمونه، وهم يقرؤون قوله تعـالى جامعـا بين الدعوة للعدل والإحسان: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَـانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُـرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَـاءِ وَالْمُنْكَـرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90]

قال الحكيم: فهل تعلمون الجزاء العظيم الـذي أعـده اللـه للمحسنين؟

قال الرجل: أجل.. وأوله وأعظمـه معيـة اللـه للمحسـنين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِـنُونَ﴾ [النحل: 128]

قال آخر: وقبله وبعده ومعه حب الله للمحسنين، كما قـال تعالى: ﴿وَأَنْفِقُـوا فِي سَـبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُـوا بِأَيْـدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَـةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: 195]

قال آخر: وبعد ذلك كله خير الدنيا والآخرة.. والذي عـبرت عنه آيات كثيرة منهـا قولـه تعـالى: ﴿ بَلَى مَنْ أَسْـلَمَ وَجْهَـهُ لِلَّهِ وَهُـوَ مُحْسِـنٌ فَلَـهُ أَجْـرُهُ عِنْـدَ رَبِّهِ وَلَا خَـوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: 112]، وقال: ﴿ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْـدِ مَـا أَصَـابَهُمُ الْقَـرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَـنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَـوْا أَجْـرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: 172]

قال آخر: بل إن الله تعـالى ذكـر أنـه أعـد للمحسـنين من الجـزاء مـا لم يعـده لغـيرهم.. فلهم الحسـنى والزيـادة.. قـال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُـوهَهُمْ قَتَـرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [يونس: 26]

قال الحكيم: بورك فيكم.. أتدرون سر كل هذا الجزاء العظيم المعد للمحسنين؟

قال رجل منهم: أجل.. فالإحسان هو المرتبة العليا من الدين.. وقد قال تعالى يذكر ذلك: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴾ [النساء: 125]، وقال رسول الله ﷺ في تعريف الإحسان: (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) (1)

قال الحكيم: ألا ترون أن مرتبة عظيمة مثل هذه استحق أصحابها أن ينالوا رضوان الله ومعيته ومحبته.. وينالوا فوق ذلك الجزاء العظيم في الدنيا والآخرة.. ألا ترون أننا بحاجة إلى التحقق بها، بل وضع كل همتنا في الرقي في درجاتها الرفيعة؟

قالوا: بلى.. ونحن نفعل ذلك بحمد الله.

قال الحكيم: من السهل أن ندعي لأنفسنا ما نشاء.. لكن الأمر خلاف ما نتوهم أو نتمنى لأن لله تعالى موازين لا يمكن تجاوزها، وقد قال تعالى: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: 123]

قالوا: صدقت في هذا.. لكننا نشعر أننا مذ تحركت فينا همة الجهاد في سبيل الله نلنا أرقى المراتب، وتحققنا بأعلى درجات الإيمان.. وقد وعدنا مشايخنا بأننا بمجرد أن تسفك دماءنا في هذه الحرب المقدسة، ستستقبلنا الملائكة، ومعها كل ما نهواه من فضل ونعمة.

قال الحكيم: أجيبوني.. أليس الشيطان يتلاعب بالحقائق، ليخدع بها من يشاء؟

قال رجل منهم: أجل.. وقد قال أخبر تعالى عن وساوس الشيطان لآدم عليه السلام، وأنه وعدهما بالخلود إن أكلا من

1) رواه البخاري ومسلم.

الشجرة: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (20) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ [الأعراف: 20، 21]

قال الحكيم: ألا ترون أن خدعة الشيطان التي انطلت على آدم عليه السلام مع ما علمه الله من الأسماء، وما رآه من العجائب، ومع التحذيرات الإلهية التي حذر بها.. يمكن أن تنطلي علينا أيضا، فنتصور الإساءة إحسانا، والجور عدلا؟

قال الرجل: بلى.. ذلك صحيح، فنحن لسنا معصومين.

قال الحكيم: ومشايخكم.. أهم معصومون فيما يدعونكم إليه.. أو يعدونكم به؟

قال الرجل: لا.. فهم لا يدعون لأنفسهم ذلك.. ونحن لا ندعي لهم ذلك.

قال الحكيم: ألا يمكن أن تكون الوعود التي وعدوكم بها مما أخطأوا فيه؟

قال الرجل: محال ذلك.. فهم قد اقتبسوها من المصادر المعصومة المقدسة.

قال الحكيم: فهل في هذه النصوص المقدسة ذكر لهذه الحرب، وما العمل فيها؟

قال الرجل: لا.. ليس فيها ذلك.. ولو كان فيها ذلك ما وقع الخلاف.

قال الحكيم: فهو فهموه إذن؟

قال الرجل: أجل.. وفهمهم محترم لأنه نابع من اجتهاد.

قال الحكيم: وهل كل محترم معصوم.. ألا يمكن أن يكون ذلك المحترم قد أخطأ في هذه المسألة دون غيرها؟

قال الرجل: ذلك ممكن.

قـال الحكيم: ألم تعلمـوا أن خطـأ واحـدا من آدم عليـه السلام، وهو أكله من الشجرة، تسبب في هبوطه من الجنة؟

قال الرجل: ذلك صحيح.

قال الحكيم: ولكن الخطأ الذي قد يقع فيه مشايخكم ربمـا يوردكم جهنم.

قال الرجل: لا.. نحن لا نخاف ذلـك.. لأن كـل مجتهـد ينـال أجـراء أخطـأ أو أصـاب.. ونحن أيضـا بمـا أننـا مقلـدون لهم، فسيتحملون عنا ما وقعوا فيه من اجتهاد خاطئ.

قال الحكيم: أراك مع حفظك الجيد للقرآن الكـريم نسـيت أن تحفـظ قولـه تعـالى: ﴿إِذْ تَبَـرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُـوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُـوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (166) وَقَـالَ الَّذِينَ اتَّبَعُـوا لَـوْ أَنَّ لَنَـا كَـرَّةً فَنَتَبَـرَّأَ مِنْهُمْ كَمَـا تَبَـرَّءُوا مِنَّا كَـذَلِكَ يُـرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَـرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَـا هُمْ بِخَـارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقـرة: 166، 167]

قال الرجل: بلى أحفظها.. وهي في سورة البقرة.

قـال الحكيم: فهـل تعلم التحـذيرات العظيمـة الـتي وردت فيها؟

قـال الرجـل: أجـل.. فهي تخـبر عن مشـهد من مشـاهد القيامة، حيث تـبرأ فيـه الأتبـاع من المتبـوعين.. وحيث يصـلون جميعا نيران العذاب.

قال الحكيم: فهل ينفع ذلك التبرؤ؟

قال الرجل: لا.. لا ينفعهم.. بل سيظلون يتحسرون.

قـال الحكيم: ألا يمكن أن يكـون هـؤلاء التـابعين الـذين أوردهم متبوعوهم العذاب هو أنتم؟

قال الرجـل: لا.. لا يمكن.. فمشـايخنا يسـتحيل أن يكونـوا كذلك.

قال الحكيم: فهل لكم دليل من الغيب على استحالة ذلك عليهم؟

لم يجد الرجل ما يقول، فقال الحكيم: ألا يدعوكم هذا بدل الرجوع إلى مشايخكم أن ترجعوا إلى مواقفكم الخطيرة هذه.. والتي يرتبط بها عز الأبد أو ذله.. أن تعرضوا أعمالكم هذه على معايير الإحسان كما وردت في المصادر المقدسة، بعيدا عن آراء الرجال، لتروا هل تنسجم معه أم لا؟

قالوا: بلى.. ذلك صحيح.

قال الحكيم: ألا يستدعي ذلك ــ أولا ــ الرجوع لتلك المصادر للتعرف على حقيقة الأحسان الذي أنيط به كل ذلك الجزاء العظيم.. حتى لا تصيبنا خدع الشيطان التي يلبس بها على العقول؟

قالوا: بلى.. فالعلم مقدم على العمل.

قال الحكيم: فهل تدرون ما الإحسان؟

قال رجل منهم: أجل.. وكيف لا ندريه.. فالمحاسن ضدّ المساوئ، كما قال تعالى: ﴿وَيَدْرَؤُنَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾ (الرعد/ 22)، أي يدفعون بالكلام الحسن ما ورد عليهم من سيّء غيرهم.

قال الحكيم: فهل للإحسان علاقة بالنفس فقط.. أم له علاقة بالغير أيضا؟

قال الرجل: بل له علاقة بكليهما، وقد قال الفيروزاباديّ في تعريفه: (الإحسان يقال على وجهين: أحدهما الإنعام على الغير، تقول: أحسن إلى فلان، والثّاني إحسان في فعله. وذلك إذا علم علما حسنا، أو عمل عملا حسنا)

قال الحكيم: فالإحسان بهذا يدخل في كل الأعمال ما كان قاصرا، أو متعديا؟

قال الرجل: أجل.. وقد ورد في الحديث ما يدل على ذلك،

فقد قال ﷺ: (إنّا لله كتب الإحسان على كلّ شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذّبحة)(1)

قال الحكيم: أليس من الإحسان أن يهتم كل إنسان بعيوبه، لإصلاحها، وتصحيح علاقته بالله، وأن يقصر اهتمامه بغيره على النصيحة؟

قال الرجل: بلى.. وقد أشار رسول الله ﷺ إلى ذلك، فقال: (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)(2)

قال الحكيم: أهذا الحديث من الأحاديث التي لا علاقة لها بالعمل.. أم أنها تتطلب عملا وحركة ووجودا خارجيا؟

قال الرجل: كيف تقول ذلك.. وقد نص العلماء المعتبرين على أن هذا الحديث من الأحاديث التي يعم تطبيقها جميع شؤون الحياة.. بل قد روينا بأسانيدنا عن المحدث الكبير أبي داود، قال كتبت عن رسول الله ﷺ خمسمائة ألف حديث، انتخبت منها ما تضمنه هذا الكتاب - يعني كتاب السنن - جمعت فيه أربعة آلاف وثمانمائة حديث، ويكفي الإنسان لدينه من ذلك أربعة أحاديث: أحدها: قوله ﷺ: (إنما الأعمال بالنيات)، والثاني: قوله ﷺ: (من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه،) والثالث: قوله ﷺ: (لا يكون المؤمن مؤمنا حتى لا يرضى لأخيه إلا ما يرضى لنفسه)، والرابع: قوله ﷺ: (الحلال بين والحرام بين)(3)

وقد عبر بعضهم عن ذلك شعرا، فقال (4):

عمدة الدين عندنا ... أربع من كلام
اتق الشبهات وازهد ... ليس يعنيك

1) رواه مسلم.

2) رواه الترمذي وغيره.

3) جامع العلوم والحكم (1/ 62)

4) جامع العلوم والحكم (1/ 63).

قال الحكيم: ألا ترون أنكم بتضييعكم لهـذا الحـديث وقعتم فيما وقعتم فيه؟

قال الرجل: كيف ذلك؟

قال الحكيم: أليس سـبب الخلاف الـذي حصـل بينكم وبين إخوانكم هو فضول كل طـرف منكم للتفتش على عقائـد الآخـر وأعماله.

قال الرجل: لابد من ذلك، وقد كان من سنة سلفنا الصالح امتحان الناس للتعرف على عقائدهم، ليعاملوهم على أساسـها، وقد قال الذهبي: (قال هشام: لقيت شهابا وأنا شـاب في سـنة أربـع وسـبعين ومئـة فقـال لي: إن لم تكن قـدريا ولا مرجئـا، وحدثتك، وإلا لم أحدثك، فقلت: ما في هذين شيء)(1)

وقـال أبـو مسـهر: قـدم ابـو إسـحاق الفـزاري دمشـق ن فاجتمع الناس ليسمعوا منه، فقال: اخرج إلى الناس، فقل لهم: من كـان يـرى القـدر، فلا يحضـر مجلسـنا، ومن كـان يـرى رأي فلان، فلايحضر مجلسنا، فخرجت، فأخبرتهم(2).

وقال الحاكم: سمعت أبا سعيد بن أبي بكر يقول: لما وقـع من أمر الكلابيـة مـا وقـع بنيسـابور كـان أبـو العبـاس السـراج، يمتحن أولاد النــاس، فلا يحــدث أولاد الكلابيــة، فأقــامني في المجلس مرة فقال: قل أنـا ابـرأ إلى اللـه تعـالى من الكلابيـة، فقلت: إن قلت هذا لا يطعمني أبي الخبز، فضحك وقـال: دعـوا هذا(3).

قــــال الحكيم: ولم فعلــــوا هـــــذا.. ألم يكن الكــــافرون والمنـافقون يحضـرون مجلس رسـول اللـه ﷺ، ولم ينهـر أحـدا منهم عن الحضــور، أم أن هــؤلاء يتصــورون أنفســهم أعظم

1) سير أعلام النبلاء: 8/286.

2) سير أعلام النبلاء: 8/541.

3) سير أعلام النبلاء: 14/395.

وأشرف من رسول الله ﷺ؟

رمى رجل منهم بسيفه، وقال: بورك فيك.. لكأني أول مرة أسمع قوله ﷺ:(من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه)، فلو أن كل مؤمن اكتفى بتطبيق ما كلف به من أوامر، وترك لغيره الحرية في أن يمارس ما اعتقده لما حصلت كل هذه الفتنة.

لقد صرح بذلك قوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: 29]، وقوله: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ [يونس: 108]

رمى آخر بسيفه، وقال: أجل.. وقد ورد في الروايات الكثيرة أن أصحاب النبي ﷺ كان بعضهم يصوم في السفر، وبعضهم يُفطِر، (فلا يُنكِر الصائم على المُفطِر ولا المُفطِر على الصائم)(1)

وقد قال يونس الصدفي: ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يوماً في مسألة ثم افترقنا، ولقيني فأخذ بيدي ثم قال: (يا أبا موسى ألا يستقيم أن نكون إخواناً وإن لم نتفق في مسألة!)، وقد قال الذهبي معلقاً على هذه القصة: (هذا يدل على كمال عقل هذا الإمام وفقه نفسه فما زال النظراء يختلفون)(2)

رمى آخر بسيفه، وقال: بورك فيكم.. لقد تذكرت لتوي مقولة ليحيى بن سعيد يقول فيها: (ما برح المستفتون يستفتون فيحل هذا ويحرّم هذا، فلا يرى المحرّم أن المحلل هلك لتحليله، ولا يرى المحلل أن المحرّم هلك لتحريمه)، وقال آخر: (إذا رأيت الرجل يعمل بعمل قد اختلف فيه وأنت ترى غيره فلا تنهه)

---

1) جامع بيان العلم وفضله (2/161)

2) فتح البر بترتيب التمهيد لابن عبد البر (4/548)

رمى آخر بسيفه، وقال: بورك فيكم.. لقد تذكرت لتوي ما ورد في الحديث عن عبد الله بن مسعود، قال: سمعت رجلاً قرأ آية سمعت من رسول الله ﷺ خلافها[1]، فأخذت بيده، فأتيت به رسول الله ﷺ، فقال: كلاكما محسن، ثم قال: (لا تختلفوا، فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا)[2].. فهذا الحديث يجيز الاختلاف ويعتبره، لكنه يحرم الخلاف.. فالخلاف شقاق، ويؤدي إلى الهلاك.

بل قد ورد في الحديث عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ لنا لما رجع من الأحزاب: لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة، فأدرك بعضهم العصر في الطريق، وقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلي ولم يرد ذلك منا، فذكر ذلك للنبي ﷺ، فلم يعنف واحدا منهم.. وهذا يدل على أن في الدين سعة.. وأن كل فهم للنص يمكنه أن يكون مقبولا ما دام لا يعارض أصول الدين ولا قواعده.

رمى آخر بسيفه، وقال: صدقتم جميعا.. لقد ملأ مشايخ السوء قلبي أحقادا، فقد كنت أنهض كل صباح لأشق عن قلوب المؤمنين، وأبحث عن عقائدهم، لأرميهم بعدها بالبدعة.. ثم أصليهم نار جهنم، ليرتاح قلبي، وتطمئن نفسي..

رمى آخر بسيفه، وقال: صدقت يا أخي.. لقد كان أولئك المشايخ يعرضون عن أحاديث رسول الله ﷺ التي تنهانا عن الشق عن قلوب الناس لمعرفة عقائدهم.. ليعوضوها بحديث ينسبونه لسفيان الثوري يقول فيه: (امتحنوا أهل الموصل بالمعافى فمن ذكره – يعني بخير – قلتَ هؤلاء أصحاب سنة وجماعة، ومن عابه قلتَ هؤلاء أصحاب بدع)[3]

وبحديث لأحمد بن حنبل يقول فيه: (إذا رأيت من يغمزه –

---

1) المراد منه الاختلاف في كيفية قراءتها.

2) رواه البخاري.

3) تهذيب الكمال 28/153.

يعني حماد بن سلمة – فاتهمه ؛ فإنه كان شديداَ على أهل البدع)(1)

وبحديث ليحيى بن معين يقول فيه: (إذا رأيت إنساناً يقع في عكرمة وحماد بن سلمة فاتهمه على الإسلام)(2)

وبحديث لابن حبان يقول فيه: (ولم يكن يثلبه في زمانه إلا معتزلي قدري أو مبتدع جهمي لما كان يظهر من السنن الصحيحة التي ينكرها المعتزلة) (3)

وبحديث لنعيم بن حماد يقول فيه: (إذا رأيت العراقي يتكلم في أحمد - يعني ابن حنبل - فاتهمه، وإذا رأيت الخراساني يتكلم في إسحاق – يعني ابن راهويه - فاتهمه، وإذا رأيت البصري يتكلم في وهب بن جرير فاتهمه) (4)

وبحديث لأبي حاتم الرازي يقول فيه: (إذا رأيتم الرجل يحب أحمد بن حنبل فاعلموا أنه صاحب سنة) (5)

وبحديث لمحمد بن هارون المخرمي الغلاس يقول فيه: (إذا رأيت الرجل يقع في أحمد بن حنبل فاعلم أنه مبتدع) (6)

وبحديث أبي الحسن الطرخاباذي الهمَذاني الذي يقول فيه: (أحمد بن حنبل محنة يعرف بها المسلم من الزنديق)(7)

رمى آخر بسيفه، وقال: لقد غفل هؤلاء جميعا عن قوله

1) سير أعلام النبلاء: 7/452.

2) تهذيب الكمال للمزي 7/263 ، وسير أعلام النبلاء 7/447.

3) تهذيب الكمال 7/267

4) سير أعلام النبلاء: 11/370

5) تهذيب الكمال 1/456

6) تهذيب الكمال 1/456

7) تهذيب الكمال 1/457.

تعـالى: ﴿وَلَا تَقُولُـوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّـلَامَ لَسْـتَ مُؤْمِنًـا﴾ [النسـاء: 94]، فالآيـة الكريمـة تمنـع المؤمـنين من أن يخرجـوا أحدا من الإيمان بمجرد إلقائه السلام[1] أو إظهاره لأي شـريعة من شرائعه.. لكن أولئك المشايخ لم يكونوا يكتفون لا بالسلام، ولا بالشهادتين.. ولا بالصلاة.. ولا بالقرآن.. بل كانوا يشـترطون للحكم على المؤمنين بالإيمان أن يذعنوا لهم ولمشايخهم إذعانا تاما، حتى يشهدوا لهم بالإيمان.

وقد ذكر الله تعالى أن سبب ذلك الإفراط في حب الـدينا، فقال: ﴿تَبْتَغُـونَ عَـرَضَ الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا ﴾ [النسـاء: 94].. فالـدنيا ومناصـبها وأموالهـا وحب التعـزز فيهـا هـو الـذي دعـا أولئـك المشايخ إلى أن يعتبروا أنفسهم معايير للإسلام والزندقة.

رمى آخر بسيفه، وقال: لقـد غفـل أولئـك المشـايخ الـذين حجبونا عن ربنا وملأوا قلوبنا أحقادا عن تلـك الروايـات الكثـيرة التي تدعونا إلى الاهتمام بأنفسـنا، وتـرك الخلـق للخـالق، فهـو ربهم، وأعلم بهم، وبكيفية تربيته لهم.. لقد تذكرت لتوي مـا ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: (أول من يـدخل عليكم رجل من أهل الجنة)، فدخل رجل، فقـام إليـه نـاس، فـأخبروه، وقـالوا: أخبرنـا بـأوثق عملـك في نفسـك، قـال: (إن عملي لضعيف، وأوثق ما أرجو به سلامة الصدر، وتركي مـا لا يعنيـني)[2]

رمى آخر بسيفه، وقال: لقد غفل أولئك المشايخ عن تلـك النصوص المقدسـة الكثـيرة الـتي تـدعونا إلى تحسـين علاقاتنـا بالناس مهما اختلفت مذاهبهم.. وراحوا يشحنون قلوبنا بالأحقاد التي تجعلنا أغلظ أكبادا من الإبل.

لقد غفلوا عمـا ورد في القـرآن الكـريم من شـأن يوسـف

---

1) من الروايات الواردة في سبب نزول الآية ما رواه أحمد عن ابن عباس قال: مـر رجل من بني سليم بنفر من أصحاب النبي ﷺ وهو يسوق غنما له، فسـلم عليهم فقـالوا: ما سلم علينا إلا ليتعوذ منـا. فعمـدوا إليـه فقتلـوه، وأتـوا بغنمـه النـبي ﷺ، فـنزلت الآيـة، تفسير ابن كثير (2/ 382)

2) جامع العلوم والحكم (1/ 294)

عليه السلام في السجن، وكيف تأثر به المساجين، مع كونهم كانوا مشركين، كما قالت تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: 36]

ولو أن يوسف عليه السلام استعمل معهم قوانين الولاء والبراء التي ربانا عليها مشايخنا لما اعتبروه من المحسنين، ولما أقبلوا يسألونه.. وكيف يسألون من يعبس في وجوههم، ويهجرهم ويحتقرهم.

رمى آخر بسيفه، وقال: أتذكر جيدا ذلك اليوم المؤلم الذي ذهبت فيه إلى بعض مشايخنا، وأخبرته أن والدي قاما بزيارة لبعض الأضرحة، وأنهما طلبا مني اصطحابهما، فأخبرني أنهما مشركان، ثم أتبع ذلك بقوله ناقلا عن شيخه ابن تيمية: (فإن الوالد إذا دعا الولد إلى الشرك ليس له أن يطيعه بل له أن يأمره وينهاه وهذا الأمر والنهي للوالد هو من الإحسان إليه. وإذا كان مشركا جاز للولد قتله)[1]

وقد جعلتني فتواه تلك أفكر مرات كثيرة في قتلهما، لولا أني قرأت قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (14) وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [لقمان: 14، 15]

وقرأت معها كيف تعامل إبراهيم عليه السلام مع قريبه المشرك، كما قال تعالى: ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا (41) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا (42) يَاأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا (43) يَاأَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا (44) يَاأَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ

1) مجموع الفتاوى (14/ 478).

يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا (45) قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَاإِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا (46) قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا (47) وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا (48) [مريم: 41 - 48]

رمى آخر بسيفه، وقال: لقد حصل لي ما حصل لك، ولكن ليس مع أهلي، وإنما مع جيراني وأقاربي جميعا الذين أعلنت الحرب عليهم بسبب مخالفتهم لما أراه من آراء، أو لمن أواليهم من الناس.. وقد جعلني ذلك أمتلئ بكل أنواع الحقد والكراهية مع أنني قبل التزامي كنت مسالما، بل ومحبوبا من جميع الناس.

أذكر في ذلك اليوم أني ذهبت إلى شيخي، وحكيت له عن أصدقائي وجيراني، فسألني عن عقائدهم، فأخبرتهم عنها، فراح يحكي لي عن بعض مشايخه أنه قال: (من جلس مع صاحب بدعة فاحذره، ومن جلس مع صاحب البدعة لم يُعطَ الحكمة، وأحب أن يكون بيني وبين صاحب بدعة حصن من حديد، آكل مع اليهودي والنصراني أحب إليَّ من أن آكل مع صاحب البدعة)[1].

وحكى لي عن آخر قوله: (من أتاه رجل فشاوره فدله على مبتدع فقد غش الإسلام، واحذروا الدخول على صاحب البدع فإنهم يصدون عن الحق)[2]

وحكى لي عن آخر قوله: (من أصغى بإذنه إلى صاحب بدعة خرج من عصمة الله ووكل إليها يعني إلى البدع) [3]

وحكى لي عن آخر قوله: (لأن يجاورني قردة وخنازير،

---

1) الحلية لأبي نعيم 8/103.

2) شرح أصول اعتقاد أهل السنة برقم 261.

3) البربهاري في شرح السنة /60.

أحب إليَّ من أن يجاورني أحد منهم يعني أصحاب الأهواء)[1]

وحكى لي عن آخر أنه (جعل إصبعيه في أذنيه لما سمع معتزليًا يتكلم)[2]

وحكى لي عن آخر قوله:أنه (امتنع من سماع إبراهيم بن أبي يحيى المعتزلي، وقال: لأن القلب ضعيف وإن الدين ليس لمن غلب)[3]

وحكى لي عن آخر قوله لرجل ممن سماهم أصحاب الأهواء: أسألك عن كلمة، فولى وهو يقول: ولا نصف كلمة، مرتين يشير بإصبعيه[4].

رمى آخر بسيفه، وقال: لقد غفل هؤلاء جميعا أن يحدثونا عن مقولة إمام المتقين الإمام علي في عهده لمالك الأشتر لما ولاه مصر، فقد قال له: (.. وأشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان إما أخ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق، يفرط منهم الزّلل، وتعرض لهم العلل، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ، فأعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب أن يعطيك الله من عفوه وصفحه)[5]

رمى آخر بسيفه، وقال: صدقت.. وقد غفلوا عن أولئك العلماء الصادقين الذين وقفوا في وجه هذه الفتنة، كالشيخ جمال الدين القاسمي[6]، فقد كان من دعاة الترفع على

---

1) شرح أصول اعتقاد أهل السنة برقم 231.

2) ابن بطة في الإبانة 1/40.

3) ابن بطة في الإبانة 1/40.

4) شرح أصول اعتقاد أهل السنة برقم 291.

5) نهج البلاغة: 53.

6) وهو من علماء الحديث والتفسير، ومع ذلك ينكر عليه السلفية، ويتشددون في رفضه انظر أقوال الشيخ ربيع بن هادي في جمال الدين القاسمي في [بيان مافي

الأحقاد، والتعامل مع الناس بإنسانية، لا بما يقتضيه ولاؤهم وبراؤهم، فمن مقولاته في ذلك: (من المعروف في سنن الاجتماع أن كل طائفة قوي شأنها، وكثر سوادها، لا بد أن يوجد فيها الأصيل والدخيل، والمعتدل والمتطرف، والغالي والمتسامح، وقد وجد بالاستقراء أن صوت الغالي أقوى صدى، وأعظم استجابة، لأن التوسط منزلة الاعتدال، ومن يحرص عليه قليل في كل عصر ومصر، وأما الغلو فمشرب الأكثر، ورغيبة السواد الأعظم، وعليه درجت طوائف الفرق والنحل، فحاولت الاستئثار بالذكرى، والتفرد بالدعوى، ولم تجد سبيلاً لاستتباع الناس لها إلا الغلو بنفسها، وذلك بالحط من غيرها، والإيقاع بسواها، حسب ما تسنح لها الفرص، وتساعدها الأقدار، إن كان بالسنان، أو اللسان)(1).

وقال مدافعا عن المتهمين بالبدعة: (ولكن لا يستطيع أحد أن يقول: أنهم تعمدوا الانحراف عن الحق، ومكافحة الصواب عن سوء نية، وفساد طوية، وغاية ما يقال في الانتقاد في بعض آرائهم: إنهم اجتهدوا فيه فأخطأوا، وبهذا كان ينتقد على كثير من الأعلام سلفاً وخلفاً لأن الخطأ من شأن غير المعصوم، وقد قالوا: المجتهد يخطئ ويصيب: فلا غضاضة ولا عار على المجتهد أن أخطأ في قول أو رأي، وإنما الملام على من ينحرف عن الجادة عامداً معتمداً، ولا يتصور ذلك في مجتهد ظهر فضله، وزخر علمه)(2).

وقال: (دع مخالفك ــ إن كنت تحب الحق ــ يصرح بما يعتقد، فإما أن يقنعك وإما أن تقنعه ولا تعامله بالقسر فما انتشر فكر بالعنف أو تفاهم قوم بالطيش والرعونة. من خرج في معاملة مخالفه عن حد التي هي أحسن يحرجه فيخرجه عن الأدب ويحوجه إليه لأن ذلك من طبع البشر مهما تثقفت أخلاقهم وعلت في الآداب مراتبهم. وبعد فإن اختلاف الآراء من

نصيحة إبراهيم الرحيلي من الخلل والإخلال] ص (١٤-١٥)]

1) الجرح والتعديل ـ ص4.

2) الجرح والتعديل ـ ص10.

سنن هذا الكون، وهو من أهم العوامل في رقي البشر، والأدب مع من يقول فكره باللطف قاعدة لا يجب التخلف عنها في كل مجتمع. والتعادي على المنازع الدينية وغيرها من شأن الجاهلين لا العالمين، والمهوسين لا المعتدلين)(1)

رمى آخر بسيفه، وقال: صدقت.. وقد قال قبلـه صـالح بن مهدي المقبلي: (فأقول اللهم إنه لا مذهب لي إلا دين الإسـلام، فمن شمله فهو صاحبي وأخي، ومن كان قدوة فيـه عـرفت لـه حقه، وشكرت له صنعه، غير غالٍ فيـه ولا مقصر، فـإن اسـتبان لي الـدليل، واسـتنار لي السـبيل، كنت غنيـاً عنهم في ذلـك المطلب، وإن ألجأتني الضرورة إليهم وضـعتهم موضـع الإمـارة على الحق، واقتفيت الأقـرب في نفسـي إلى الصـواب بحسـب الحادثة، بريئـاً من الانتسـاب إلى إمـام معين، يكفيـني أني من المسلمين، فإن ألجأني إلى ذلك الله، ولم يبق لي من إجابـاتهم بـد، قلت: مسـلم مـؤمن، فـإن مزقـوا أديمي، وأكلـوا لحمي، وبالغوا في الأذى، واستحلوا البذا، قلت: ﴿سَـلامٌ عَلَيْكُمْ لا نَبْتَغِي الْجَـاهِلِينَ﴾ [القصـص: 55]، ﴿لا ضَـيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَـا مُنقَلِبُـونَ﴾ [الشـعراء: 50]، وأجعلـك اللهم في نحـورهم، وأعـوذ بـك من شرورهم، رب نجني مما فعله المفرقون لدينك، وألحقني بخـير القرون من حزب أمينك ﷺ)(2)

---

1) الجرح والتعديل ـ ص38.

2) العلم الشامخ في تفضيل الحق على الآباء والمشايخ، المقبلي، صالح بن المهدي، ص7 ـ 8،

سابعا ـ الرحمة

قام الحكيم السابع بين الصفين، وقال: أخبروني يا من لا تزالون تحملون سيوفكم عن أول اسم من أسماء الله الحسنى تجدونه في القرآن الكريم.

قام رجل من القوم، وقال: ذاك مما يعرفه صغارنا.. إنه لا شك اسمه الرحمن المقترن باسم الرحيم.. فقد تكرر ذكرهما في سورة الفاتحة مرتين.. وتكرر ذكر رحمة الله في القرآن الكريم بما لا يعد ولا يحصى.. بل لم يذكر من أسماء الله الحسنى وصفاته العليا مثلما ذكرت رحمة الله.

قال الحكيم: فهل رحمة الله خاصة بقوم دون قوم.. أو بخلق دون خلق.. أم أنها وسعت الخلق جميعا؟

قال الرجل: لاشك أنها وسعت الخلق جميعا، وقد قال تعالى::﴿ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآَيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴾

قال الحكيم: فهل يمكنها أن تسع المذنبين والغافلين والعاصين؟

قال الرجل: ويلك.. وهل أنت في شك من ذلك.. فرحمة الله وسعت كل شيء.. حتى المذنبين والغافلين والعاصين، وقد قال تعالى:﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾[الزمر: 53]، وقال: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام: 147]

قال الحكيم: فهل تجدون في أتباع الرسل عليهم الصلاة والسلام من عمر طويلا وهو كافر مشرك.. لكن رحمة الله تداركته في آخر لحظة.. فآمن واتبع الرسل ومحيت عنه كل خطاياه.. بل عوض بدلها الدرجات الرفيعة من الجنة؟

قال الرجل: أجل.. وهو كثير جدا.. وقد ذكر القرآن الكريم

من أمثلته سحرة فرعون، فقد عاشـوا حيـاتهم كلهـا في بلاطـه يشركون بالله.. ويمارسون كل صنوف الانحـراف، ولكن رحمـة الله تداركتهم.. كما قال تعالى: ﴿فَـأُلْقِيَ السَّـحَرَةُ سُـجَّدًا قَـالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ [طه: 70]، و﴿ قَالُوا لَنْ نُـؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَـا مِنَ الْبَيِّنَـاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَـا فَـاقْضِ مَـا أَنْتَ قَـاضٍ إِنَّمَـا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (72) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (73) إِنَّهُ مَنْ يَـأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًـا فَـإِنَّ لَـهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُـوتُ فِيهَـا وَلَا يَحْيَى (74) وَمَنْ يَأْتِـهِ مُؤْمِنًـا قَـدْ عَمِـلَ الصَّـالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الـدَّرَجَاتُ الْعُلَى (75) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَـزَاءُ مَنْ تَزَكَّى (76) ﴾ [طه: 72 - 76]

قال الحكيم: فهل تـراهم قـد فـازوا بالسـعادة الأبديـة بعـد قولهم هذا؟

قال الرجل: لا شك في ذلك.. ومن شك في ذلك فهو كافر يستتاب، فإن تاب وإلا قتل، ورميت رأسه في المزابل.

قال الحكيم: أرأيتم لـو أن رجلا من الغيـورين أمثـالكم راح لبعض هؤلاء السحرة، فقتلهم، كيف يكون مصيرهم؟

قـال الرجـل: لا شـك أن مصـيرهم حينهـا سـيكون جهنم، وبئس المصير.

قال الحكيم: فكم سيمكثون فيها حينها؟

قال الرجل: سيخلدون فيها خلودا أبديا.

قـال الحكيم: ألا يكـون الـذي قتلهم حينهـا قـد جـنى عليهم..وقد حرمهم من السعادة الأبدية.. وأنـزلهم دار الشـقاوة الأبدية.

قال الرجل: أجل..

قال الحكيم: فهل تراه قاسيا بفعله ذلك، أم رحيما؟

قال الرجل: بـل أراه قاسـيا لأن اللـه رحمهم بمـد آجـالهم

حتى يروا من آيات الله ما تطمئن له قلوبهم، ويتخلصـوا بـه من ضلالهم.

قـال الحكيم: فلم لا تـتركون الفرصـة لمن تـرونهم قـد ابتدعوا أو ضلوا عسى هداية اللـه تملأ قلـوبهم.. وعسـى رحمـة الله التي وسعت كل شيء تتداركهم؟

سكت الرجـل، فقـال الحكيم: أخـبروني عن خـبر إبـراهيم عليه السلام عندما جاءه الملائكة الذين يريـدون إنـزال العقوبـة على قـوم لـوط بعـد أن قـامت الحجـة عليهم.. هـل ترونـه راح يشـجعهم على ذلـك، ويفـرح بمـا عزمـوا عليـه، أم ترونـه راح يستعمل كل الوسائل لمنعهم، مع علمه بأنهم ملائكة الله؟

قام رجل آخر، فقال: لقد حكى القرآن الكـريم عن ذلـك.. فقد قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْـرَى يُجَادِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هـود: 74]، لكن اللـه عاتبـه على ذلـك، فقال: ﴿يَاإِبْرَاهِيمُ أَعْـرِضْ عَنْ هَـذَا إِنَّهُ قَـدْ جَـاءَ أَمْـرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ﴾ [هود: 76]

قـال الحكيم: فهـل تـرون اللـه تعـالى مـدح إبـراهيم عليـه السلام في موقفه ذلك أم لا؟

قال الرجل: بل مدحه.. فقد قال تعالى قبل ذكر عتابه لـه: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود: 75]

قال الحكيم: فهل كـانت أفعـال قـوم لـوط أفعـالا شـنيعة، وكان إبراهيم يعلم بها أم لا؟

قال الرجل: بل كانت أفعالا شـنيعة.. وكـان إبـراهيم عليـه السلام يعلم بها.

قال الحكيم: ومع ذلـك.. فقـد توسـط لهم ورحمهم وأثـنى الله عليه بذلك.

قال الرجل: ذلك صحيح.

قال الحكيم: ولم كان كذلك؟

قال الرجل: لأن الأنبياء عليهم السلام جبلوا على الرحمة.. وقد أخبر الله تعالى عن رسول الله ﷺ أنه كان من فرط حزنه على قومه بسبب عدم إيمانهم يكاد يقتل نفسه.. قال تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ [الكهف: 6]، وقال: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [الشعراء: 3]

قال الحكيم: ولم كان كذلك؟

قال الرجل: لحرصه على إيمانهم، وقد قال تعالى يبين ذلك: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَاعَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة: 128]

قال الحكيم: أرأيتم لو أن رسول الله ﷺ تمكن حينها منهم، أكان يقيم عليهم جميعا حد الردة، فيقتلهم لشركهم، ولصدهم عن دين الله؟

قال الرجل: وأنى لنا أن نعرف ذلك.

قال الحكيم: بلى.. ألم تروا في الحديث أن رسول الله ﷺ أجاب من سأله: (هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟)، قال: (لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم علي، ثم قال: يا محمد، فقال، ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده، لا يشرك به شيئا)[1]

قال الرجل: الحديث صحيح.. وقد رواه جمع كثير من

1) رواه البخاري.

الثقاة الذين لا نشك في نزاهتم وضبطهم وكفاءتهم في الرواية.

قال الحكيم: ألا ترى أن رسول الله ﷺ كان في إمكانه عن طريق ملك الجبال أن يقيم عليهم أحكام الدين.. ويقضي عليهم دفعة واحدة، وتستريح الأرض من شركهم؟

قال الرجـل: لقـد طمـع رسـول اللـه ﷺ في أن يكـون من أولاد أولئك المشركين من يؤمن به.

قـال الحكيم: فلم لا تطمعـون في أولاد من تحـاربونهم أن ينتهجوا الصراط الذي تنتهجونه.

قال الرجل: لقد كان ذلك في مكة.. لا في المدينة.. وكـان قبل الهجرة لا بعدها.

قال الحكيم: فهل ترون رحمة الله ورحمة رسوله نســخت أم عطلت بعد الهجرة؟

قال الرجل: معاذ الله.. فرسول الله كما ذكره ربـه رحمـة للعالمين.. كما قال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَـالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: 107]

قـــال الحكيم: ولكنكم تجعلونـــه رحمـــة خاصـــة بكم حين تسمحون لأنفسكم أن تقتل كل من يخالفكم بحجـة أنـه يخـالف نبيكم.

سكت الرجل، فقال الحكيم: ألستم تــذكرون في دواوينكم التي هي أهم عندكم من كـل شـيء أن كبـار المشـركين الـذين حاربوا رسول اللـه ﷺ، وتفننـوا في حربـه قـد أسـلموا، وحسـن إسلامهم.. وأنهم صاروا صـحابة أجلاء.. وأنهم اكتسـبوا بعـد كـل تلك الحروب التي خاضوها ضد الإسلام من الحرمة والمنعـة مـا لم يكتسبه الذين ولدوا في الإسلام وعاشوا به، وماتوا عليه.

قال الرجل: تقصد هندا وأبا سفيان؟

قال الحكيم: وغيرهما كثير.. ألسـتم تجلـونهم وتعظمـونهم مع كل ما فعلوه؟

قال الرجل: لأن رحمة الله تداركتهم.. فتحولـوا من أعـداء أشقياء إلى صحابة أجلاء.

قـال الحكيم: فلم لا تـدعون رحمـة اللـه تتـدارك هـؤلاء البسطاء الذين تقاتلونهم.. ولم لا تدعون رحمة الله تتـنزل على أولادهم وأحفادهم إن لم تتنزل عليهم؟

سكت الرجل، فقال الحكيم: أخبروني ماذا تفعلـون برجـل يحمل النجاسات.. ويضعها في المسجد؟

سل بعضهم سـيفه، وقـال: من رأيتـه يفعـل ذلـك لأغمـدن سـيفي في صـدره.. أو لأجـتزن رقبتـه وأرمي برأسـه للكلاب والثعالب.

قال الحكيم: فهل لك دليل على ذلك من سـنة نبيـك الـذي تزعم أنك تتبعه؟

قـال الرجـل: أجـل.. فالمسـاجد من شـعائر اللـه.. ومن حقرها فقد حقر شعائر الله.. وليس لذلك سوى القتل.

قال الحكيم: فهل أنت أكثر تعظيما لشعائر الله من رسول الله ﷺ؟

قال الرجل: معاذ الله.. فرسـول اللـه ﷺ هـو أعلم الخلـق بالله، وأعظمهم تعظيما لشعائره.

قال الحكيم: فما سنته فيمن فعل ذلك؟

قال الرجل: أنا لم أسمع بأي سنة في هذا الباب.

قال الحكيم: ألم تسمع بحديث الذي بال في المسجد؟

قال الرجل: بلى.. لقد أنستنيه الأيام مع أنـني لـدي إجـازة من مشايخي بروايته.. فقد حـدثني شـيخي عن شـيخه إلى أبي هريرة قال: بينما نحن في المسجد مـع رسـول اللـه ﷺ إذ جـاء أعرابي فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسـول اللـه ﷺ: مه مه، فقال رسول الله ﷺ: (لا تزرموه، دعوه)، فـتركوه حـتى

بال، ثم إن رسول الله ﷺ، دعاه فقال له: (إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ولا القذر، إنما هي لذكر الله عز وجل والصلاة وقراءة القرآن)، فأمر رجلا من القوم فجاء بدلو من ماء فشنّه عليه(1).

قال الحكيم: بورك في حفظك للحديث.. لكنك لم تكمله.. فللحديث تتمة.

قال الرجل: أجل.. وقد رويتها بسندي عن أبي هريرة أن أعرابيا دخل المسجد ورسول الله ﷺ جالس، فصلى ركعتين ثم قال: اللهم ارحمني ومحمدا ولا ترحم معنا أحداً، فقال النبي ﷺ: لقد تحجرت واسعاً. ثم لم يلبث أن بال في ناحية المسجد، فأسرع الناس إليه، فنهاهم النبي ﷺ، وقال: (إنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين)، صبوا عليه سجلا من ماء(2).

قال الحكيم: فهل ترى أن هذه الحادثة خاصة بزمنه ﷺ.. أم أنها عامة؟

قال الرجل: بل هي عامة.. فقد ذكر رسول الله ﷺ في آخر الحديث لصحابته هذه المقولة: (إنما بعثتم ميسرين، ولم تبعثوا معسرين)

قال الحكيم: فهل ترون ما تقومون به من قتل بعضكم بعضا من أجل رأي أو قضية أو موقف داخل في التيسير أم التعسير؟

سكت الرجل، فقال الحكيم: بل هو داخل في التعسير.. وأنتم بمواقفكم هذه تخالفون سنة نبيكم ﷺ.. بل تحولون دين الرحمة إلى دين قسوة.. ودين اليسر إلى دين عسر.. أنتم تحرفون الدين تحريفا خطيرا.

رمى رجل سيفه، وقال: بورك فيك أيها الحكيم.. لقد تذكرت لتوي كيف فعل رسول الله ﷺ عندما تمكن من أعدائه

---

1) رواه البخاري ومسلم.

2) رواه أبو داود.

الذين صبوا عليه وأصحابه جميع أنواع العذاب، وسلبوا أموالهم، وديارهم، وأجلوهم عن بلادهم، لكنه ﷺ قابل كل تلك الإساءات بالعفو والصفح والحلم قائلاً: (يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟)، قالوا: خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال ﷺ: (اذهبوا فأنتم الطلقاء)

لقد أنزل الله عليه: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ (النحل:126)، فاختار أن يعفو عنهم ويصبر على ما كان منهم، وأن لا يعاقب فقال: (نصبر ولا نعاقب)

رمى آخر بسيفه، وقال: صدقت.. وقد تذكرت لتوي حديث جابر أنه غزا مع رسول الله ﷺ، فلما قفل معه أدركتهم القائلة في في واد كثير العضاة فنزل رسول الله ﷺ وتفرق الناس يستظلون بالشجر، ونزل رسول الله ﷺ تحت سمرة فعلق سيفه، ونمنا نومة، فإذارسول الله ﷺ يدعونا، وإذا عنده أعرابي، فقال: (إن هذا اخترط علي سيفي، وأنا نائم، فاستيقظت وهو في يده فقال: من يمنعك مني؟) فقلت: الله ثلاثا، ولم يعاقبه وجلس(1).

رمى آخر بسيفه، وقال: صدقت.. وقد تذكرت لتوي حديث جابر الآخر أن رسول الله ﷺ جعل يقبض يوم حنين من فضة في ثوب بلال، ويفرقها، فقال له رجل: يا رسول الله أعدل، فقال: (ويحك، من يعدل إذا أنا لم أعدل؟ قد خبت وخسرت إن كنت لا أعدل) فقال عمر: ألا أضرب عنقه فإنه منافق؟ فقال: (معاذ الله أن يتحدث أني أقتل أصحابي)(2)

رمى آخر بسيفه، وقال: صدقت.. وقد تذكرت لتوي حديث عبد الله بن مسعود قال: لما كان يوم حنين آثر رسول الله ﷺ ناسا في القسمة ليؤلفهم، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى ناسا من أشراف العرب، وآثرهم يومئذ في

---

1) رواه البخاري.

2) رواه أبو الشيخ، وابن حبان.

القسمة، فقال رجل: إن هذه لقسمة ما عدل فيها، وما أريد بها وجه الله تعالى، قال: فقلت: والله لأخبرن رسول الله ﷺ فأتيته، فأخبرته بما قال، فتغير وجهه حتى كان كالصرف، ثم قال: (فمن يعدل إن لم يعدل الله ورسوله؟ ثم قال: (يرحم الله موسى ﵇، قد أوذي بأكثر من هذا فصبر)(1)

رمى آخر بسيفه، وقال: صدقت.. وقد تذكرت لتوي حديث عبد الله بن سلام: أن زيد بن سعية ــ وهو أحد علماء أهل الكتاب من اليهود ـ قال: إنه لم يبق من علامات النبوة شئ إلا وقد عرفتها في وجه محمد ﷺ حين نظرت إليه، إلا اثنتين لم أخبرهما منه: أن يسبق حلمه جهله، ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلما، فكنت أتلطف له لأن أخالطه فأعرف حلمه، فابتعت منه تمرا معلوما إلى أجل معلوم، وأعطيته الثمن، فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة، أتيته، فأخذت بجامع قميصه وردائه، ونظرت إليه بوجه غليظ، فقلت: يا محمد ألا تقضيني حقي؟ فوالله إنكم يا بني عبد المطلب لمطل، وقد كان لي بمخالطتكم علم، فقال عمر: أي عدو الله، أتقول لرسول الله ﷺ ما أسمع؟ فوالله لولا ما أحاذر فوته لضربت بسيفي رأسك، ورسول الله ﷺ ينظر إلى عمر في سكون، وتؤدة، وتبسم، ثم قال: (أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا منك يا عمر، تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن التباعة، اذهب يا عمر فاقضه حقه، وزده عشرين صاعا، مكان ما رعته)، ففعل عمر، فقلت: يا عمر، كل علامات النبوة قد عرفتها في وجه رسول الله ﷺ إلا اثنتين لم أخبر هما منه، يسبق حلمه جهله، ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلما، فقد خبرتهما، فأشهدك أني رضيت بالله تعالى ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ نبيا(2).

رمى آخر بسيفه، وقال: صدقت.. وقد تذكرت لتوي حديث عائشة قالت: ابتاع رسول الله ﷺ جزورا من أعرابي بوسق من تمر الذخيرة، فجاء منزله، فالتمس التمر، فلم يجده، فخرج إلى

---

1) رواه مسلم.

2) رواه ابن حبان، والحاكم.

الأعرابي فقال: (عبد الله، إنا قد ابتعنا منك جزورك هذا بوسق، من تمـر الـذخيرة، ونحن نـرى أن عنـدنا، فلم نجـده) فقـال: الأعرابي: واغدراه واغدراه، فـوكزه النـاس وقـالوا: إلى رسـول الله ﷺ تقول هـذا؟ فقـال: (دعـوه، فـإن لصـاحب الحـق مقـالا) فردد ذلك رسول الله ﷺ مرتين أو ثلاثـا، فلمـا رآه لا يفقـه عنـه قال لرجـل من أصـحابه: (اذهب إلى خولـة بنت حكيم بن أميـة فقل لها رسول الله ﷺ يقول لك إن كان عنـدك وسـق من تمـر الذخيرة فسلفينا حتى نؤديه إليـك إن شـاء اللـه تعـالى) فـذهب إليها الرجل، ثم رجع قال: قالت: نعم هو عندنا يـا رسـول اللـه، فابعث من يقبضه، فقال رسول اللـه ﷺ للرجـل: (اذهب فأوفـه الذي له) فذهب، فأوفاه الذي له، قـال فمـر الأعـرابي برسـول الله ﷺ، وهو جالس في أصحابه، فقال: جـزاك اللـه خـيرا، فقـد أوفيت وأطيبت، فقـال رسـول اللـه ﷺ: (أولئـك خيـار النـاس الموفون المطيبون)(1)

رمى آخر بسيفه، وقال: صدقت.. وقد تذكرت لتوي حديث أنس قال: كنت أمشـى مـع رسـول اللـه ﷺ وعليْـه بُـرُدٌ نجـرانىّ غليظ الحاشـية، فأدركـه أعـرابىّ فجذبـه بردائـه جذبـة شـديدة، فنظـرتُ إلى صـفحة عنـق رسـول اللـه ﷺ وقـد أثَّر بهـا حاشـية الرَّداء من شدَّة الجذبة، ثم قال: يا محمد مُـرْ لى من مـال اللـه الذى عندك، فالْتَفتَ إليه فضحك، ثم أمر له بعطاء(2).

رمى آخر بسيفه، وقال: صدقت.. وقد تذكرت لتوي حديث الرجل الـذي أتى رسـول اللـه ﷺ يتقاضـاه فأغلـظ لـه، فهم بـه أصحابه، فقال رسول الله ﷺ:(دعوه فإن لصـاحب الحـق مقـالا، ثم قال: اعطوه شيئا مثل سنة)، فقالوا: يا رسـول اللـه، لا نجـد إلا أفضل من سنه، قال: (اعطوها، وخيركم أحسنكم قضاء)(3)

رمى آخر بسيفه، وقال: صدقت.. وقد تذكرت لتوي حديث

---

1) رواه أحمد، وأبو الشيخ.

2) رواه البخارى ومسلم.

3) رواه البخاري ومسلم.

اليهودية التي أتت رسول الله ﷺ بشاة مسمومة، فأكل منها فجئ بها، فقيل: ألا تقتلها فقال: (لا)[1]

رمى آخر بسيفه، وقال: صدقت.. وقد تذكرت لتوي أن رسول الله ﷺ لما كسرت رباعيته، وشج وجهه يوم أحد شق ذلك على أصحابه، وقالوا: لو دعوت عليهم، فقال رسول الله ﷺ: (إني لم أبعث لعانا، ولكن بعثت داعيا ورحمة، اللهم اهد قومي، فإنهم لا يعلمون)[2]

رمى آخر بسيفه، وقال: صدقت.. وقد تذكرت لتوي قول أنس: (ما رأيت أحدا كان أرحم بالعباد من رسول الله ﷺ)[3]

رمى آخر بسيفه، وقال: صدقت.. وقد تذكرت لتوي حديث مالك بن الحويرث قال: كان رسول الله ﷺ رحيما، رفيقا، فأقمنا عنده عشرين ليلة، فظن أنا قد اشتقنا إلى أهلنا، فسألنا عمن تركنا عند أهلنا، فأخبرناه، فقال: (ارجعوا إلى أهليكم، فأقيموا عندهم) [4]

رمى آخر بسيفه، وقال: صدقت.. وقد تذكرت لتوي حديث أبي قتادة أن رسول الله ﷺ قال: (إني لأدخل في الصلاة، وأنا أريد أن أطيلها، فأسمع بكاء الصبي فأتجاوز في صلاتي مما أعلم من شدة وجدانه من بكائه)[5]

---

1) رواه البخاري.

2) رواه البيهقي في شعب الإيمان، مرسلا، ورواه موصولا عن سهل بن سعد مختصرا: (اللهم: اغفر لقومي، فإنهم لا يعلمون)

3) رواه مسلم.

4) رواه البخاري ومسلم.

5) رواه البخاري ومسلم.

الخاتمة

بعد أن تحدث هـؤلاء وغـيرهم بهـذا وغـيره.. قـامت ضـجة كبـيرة بين الجيشـين، وارتفعت أصـواتهم بالبكـاء، وفجـأة رأيت قائـدي كلا الجيشـين يـرمي سـلاحه، ثم يـنزل من على فرسـه، ويسير نحو أخيه يعانقه ويقبله، ويحاول كل منهما أن يقبل جبهة الآخر.

سـرت روحانيـة عظيمـة في ذلـك الحين، لم تقطعهـا إلا أصوات بعض من لم يضعوا سيوفهم، فقـد قـال أحـدهم، وكـان ذات مرتبة كبيرة في أحد الجيشين، بل كـان بمثابـة مستشـاره الإعلامي: ويلكم يا قوم.. أتستسلمون لبعض كلمات قالها هؤلاء الجهلة المبتدعة الممتلئين بالضلالة.. ويلكم كيف تلاقـون ربكم، وقـد وضـعتم سـيوفكم قبـل أن تغمـدوها في صـدور أعـداء الدين؟.. ويلكم هل نسيتم سلفكم الصالح، وغيرتهم على الدين، وشدتهم على المبتدعة؟

قـام آخـر من الجيش الآخـر، وهـو يقـول: أبعـدوا عنكم وسـاوس الشـياطين، وهلمـوا احملـوا سـيوفكم لتغمـدوها في صدور أعدائكم.. فلا ينبغي لمن حمل السلاح أن يضعه، ولا لمن ثار غيرة دين الله أن يسكت صـوت غيرتـه قبـل أن يعيـد لـدين الله حرمته.

بقي هذان وغيرهما من كل الجيشين يصرخان من غـير أن يلتفت لهما أحـد.. وفجـأة سـار كلا القائـدين إلى ربـوة مرتفعـة ليراهم الجميع، ويسمعهم، وهناك جرى هذا الحديث.

قال الأول: أيها الإخوان الفضـلاء ممن كـانوا معي أو كـانوا مع أخي.. لست أدري ما أقول لكم، وكيف أعتذر لأني أخرجتكم من بين أهليكم وأولادكم لأزج بكم في هذه الفتنة العميـاء..لقـد غطى الران على قلبي بسـبب بعض من استشـرتهم من رجـال الـدين والـدنيا.. فكلهم زينـوا لي الجـرائم الـتي حـركتكم لهـا.. ودفعتكم إليهـا.. وأنـا الآن تـائب إلى اللـه تعـالى.. وقـد رميت

سلاحي الذي كاد يصليني بالعذاب الأبدي والغضب الذي لا يطيقه أحد من الخلق.

وأنا أشكر هؤلاء الحكماء السبعة الذين جعلهم الله أنوارا نهتدي بها.. وشموسا تحرق كل ما في قلوبنا من غل وحقد وحسد.. وأنا الآن أشعر براحة عظيمة.. فكل الأثقال التي كانت تجثم على قلبي سقطت منذ سقط سيفي من يدي.

قال الثاني: بورك فيك يا أخي.. وأنا أعتذر لك.. ولكل من حملت في وجهه السلاح.. لقد كنت أسيرا للشيطان الرجيم.. وأسيرا لأولئك الذين يتاجرون بالدين في سبيل الدنيا، وفي سبيل أهوائهم.. وأنا الآن قد عزمت مع أخي على أن نجتث جذورهم، لا بالمشانق والسجون، وإنما بالعلم والحكمة والروحانية والتوجه الصادق إلى الله.

فلولا غفلتنا عن الله ما تسربت شياطين الإنس والجن لتكدر علينا صفونا، وتملأ حياتنا بالمآسي والآلام.. لو أننا عرفنا الله، وعرفنا عظمته ورحمته ولطفه بعباده لرأينا الكون أجمل بكثير وأعظم بكثير من تلك الصورة التي صورها لنا تجار الدين من أصحاب الأهواء.

ولو عرفنا أنبياءنا وورثتهم الطاهرين، وشربنا من بحارهم العذبة لتخلصنا من كل السموم التي اشتعلت في صدورنا.

قال الأول: لقد قررت أنا وأخي أن نجعل من الحكماء السبعة أئمة يهدوننا سواء السبيل، إليهم نرجع، وبهديهم نهتدي، وبسيرتهم نسير.. فهم الذين فهموا الدين، وفقهوا عن رب العالمين..

قال الثاني: وقد قررنا أن ننزل العقوبة على كل من يسعى للفتنة أو يشعلها بيننا.. وسنبدأ بهؤلاء الذين رفضوا أن يضعوا سيوفهم.. فالله تعالى أمرنا بالاجتماع على قتالهم، فقال: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ

يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات: 9]

فهم مخـيرون بين أمـرين: إمـا الاستسـلام لمـا تقتضـيه العدالة، ونحن لن نفعل بهم إلا ما كان يفعل رسول الله ﷺ مـع ألـد أعدائـه.. وإمـا أن يعلنـوا الحـرب علينـا جميعـا، وحينهـا سنقاتلهم، بعد أن نعتذر لهم بأن ذلك لم يكن إلا بسببهم.

فجأة سقطت كل السيوف التي لم تسقط من قبل.. وقـد أجرى كلا القائدين تحقيقا في أسباب الفتنة، فوجـدوا أن أولئـك الذين رفضـوا وضـع سـيوفهم هم أول من بـدأها.. ووجـدوا بعـد اقتحـام بيـوتهم أن لهم علاقـة بـدول أجنبيـة كـانت تريـد أن تستأصل بلدتنا بأكملها لا تفرق في ذلك بين جهة وجهة..

وقد توصـلت التحقيقـات إلى أن كـل القتلى الـذين قتلـوا، واتهم فيها طرف من الأطرف قصد إشعال الفتنة لم يكن سببها إلا أولئك الخونة..

وتوصلت التحقيقات إلى العلاقة الحميمة التي كانت تربـط مثـيري الفتن في كلا الجهـتين.. بـل كـان كلاهمـا يجتمعـان، ويخططان لما يقول كل طرف، وما يجيبه الطرف الآخر.

بعد أن اكتشـفت بلـدتنا بمعونـة حكمائهـا كـل ذلـك أقيمت محكمـة عادلـة، وطبقت العدالـة على أولئـك الشـياطين الـذين كادوا يستأصلون الأخضر واليابس..

وقد حضر الجميع تطبيق أحكام العدالة.. وانصـرفوا جميعـا بعـدها إلى حيـاتهم إخـوة متحـابين متصـافين، وكأنـه لم يحـدث بينهم كل ما حدث من الفتن.

وقـد بـارك اللـه في أولادهم وأرزاقهم وحيـاتهم.. فكـانت النعم تهب عليهم من كل جهة.. وقد سمع أعداؤهم بما وقع لهم فازدادوا هيبة في أعينهم.. ولم يفكر أحد في الاقـتراب منهم أو غزوهم..

بل إنه بسبب ذلك الرخاء الذي تحقق في البلدة صار كبـار التجـار والعلمـاء من الـدول المجـاورة يزوروننـا ويسـتثمرون

أموالهم وعلومهم في بلدتنا.. وقد أكسبنا ذلك قوة على قوة..

ولم يكن ذلك وحده ما بـورك لنـا فيـه.. فقـد كـانت أعظم بركة هي تلك المشاعر الروحية التي كانت تجمع بين المؤمـنين مـع اختلاف مـذاهبهم في المسـجد الواحـد.. وهم يصـلون للـه، ويتوجهون إليه بقلوب واحدة، وبألسن متعددة.. وبعدها يعـودون إلى أعمالهم بقلوب صافية سليمة.

هذا الكتاب

هذه الرواية موجهة بالدرجة الأولى لأولئك الإسلاميين ـ حركيين كانوا أو سلفيين ـ الذين تركوا الدعوة للإسلام ــ الذي أردوا احتكاره دون سائر الناس ـ وراحوا يتدنسون بعار الطائفية والحزبية والفرقة.

فصار دورهم الوحيد نشر البغضاء والأحقاد في القلوب، ونشر التفكك والقطيعة في المجتمعات، ونشر الدمار والخراب في الأوطان.

وهي تحاول أن تعيدهم إلى كتاب ربهم، وسنة نبيهم ﷺ، وهدي الأئمة الطاهرين الذين جعلهم الله ممثلين لدينه، وورثة لنبيه.

وقد وضعتها بشكل رمزي بسيط، ليسهل الاستفادة منها على العامة والخاصة.